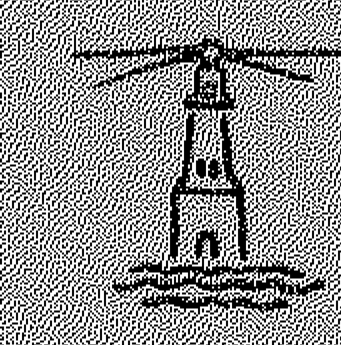
اقرأ

محجوب زيادة

الإسلام فى السودان



دار المعارف بمصر

الإسلام في السودان

محجوب زيادة

الإسلام في السودان

اقرأ ٢٠٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٨ — أبريل ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

مقدمة

أيها القارئ العزيز

أحييك تحية الإسلام .

إنك لا شك قرأت كثيراً عن تاريخ الإسلام منذ فجر الدعوة وتابعت سيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ودرست حياة الخلفاء الراشدين وتتبعت بشوق شديد وسرور عظيم قصص الفتوحات الإسلامية فى العراق والشام ومصر والأندلس والهند وفارس ، ولابد أنك كنت تشعر بالفخر يهز جوانحك والإعجاب يملك عليك أحاسيسك وأنت تقلب الصفحات من تاريخ المجاهدين الأوائل الذين حملوا لواء الدعوة فى فجر الإسلام وشقوا الطريق بين الصعاب الجمة والعقبات الشامخة لا تأخذهم فى الله لومة لائم شعارهم إما إلى النصر أو الجنة . . . هؤلاء الأبطال آمثال سيف الله خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة عامر بن الجراح وعلى بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب وعمرو بن العاص رضى الله عنهم وموسى بن نصير وطارق بن زياد

وأبى مسلم الخراسانى ، إنك لا شك قرأت الكثير عن هؤلاء وغيرهم ولكن هل سألت نفسك ما علاقة كل هذا بتاريخ وطنك الذى تعيش فيه اليوم ؟ وهل أنت ملم بتاريخ دخول الإسلام فى السودان إلمامك بسيرة الخلفاء وقصص الفتوحات الإسلامية الأولى ؟ هل سألت نفسك من هم الذين تجشموا الصعاب وقطعوا الفيافى والقفار من آسيا لأفريقيا — من بلاد العرب إلى السودان من أجلك ومن أجلى ليوصلوا إليك وإلى الدعوة المحمدية ويخرجونا من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى ودين الحق ؟ من هم هؤلاء الأبطال العظام وما هى قصتهم وعن أى طريق دخلوا السودان ومتى كان ذلك ؟ كل هذه الأسئلة وغيرها سنجلوها بإذن الله فى الصفحات القليلة القادمة من هذا الكتاب ونسأل الله التوفيق إلى كل ما فيه رضاه .

العرب فى الجزيرة العربية

العرب من القبائل السامية التى تنتسب إلى سام بن نوح عليه السلام كالعبرانيين ، واليهود ، والأحباش ، والفينيقيين ، والآشوريين ، والآراميين ، وقد جاء ذكرها جميعاً فى التوراة ، منسوبة إلى سام بن نوح . وموطن الساميين الأصلى فى العراق ما بين نهرى دجلة والفرات ، ومنه تفرقت الشعوب السامية الآنفة الذكر ، فسكن الآشوريون والبابليون فى العراق والفينيقيون والآراميون فى الشام ، والعبرانيون فى فلسطين ، والأثيوبيون فى الحبشة ، والعرب فى شبه جزيرتهم المعروفة باسمهم .

جغرافية الجزيرة العربية :

يحيط بالجزيرة العربية البحر الأحمر وبحر العرب والبحر الأبيض المتوسط ونهرا دجلة والفرات ، وأشهر أقسامها :

١ — الحجاز ، ويشمل الجبال الممتدة شمالا وجنوباً ، محاذية للبحر الأحمر ، وتقع فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة .

٢ — نجد ، وهى هضاب عالية فى وسط الجزيرة ، وهى موطن السعوديين اليوم .

٣ — تهامة ، وهى الأرض الساحلية المنخفضة الواقعة

ما بين الحجاز والبحر الأحمر .

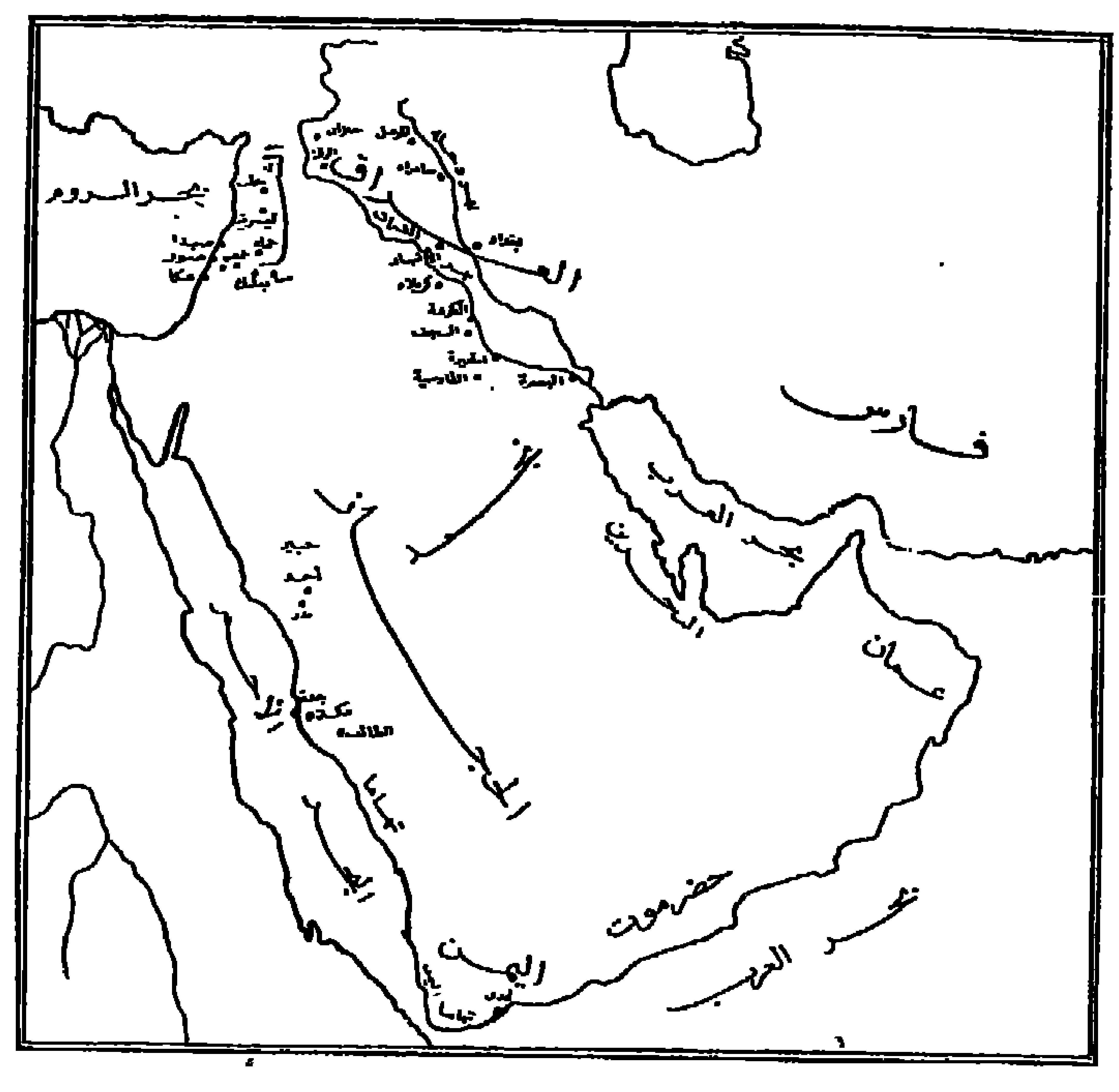
٤ — العروض ، وتشمل اليمامة وعمان والبحرين .

٥ — اليمن ، وتشمل الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية (انظر الخريطة) .

القبائل العربية :

العرب فى الجاهلية ، أو قبل الإسلام ، كانوا ينقسمون إلى قسمين كبيرين ، يطلق عليهما أسماء عديدة ، تميز كل قسم عن الآخر هذا عدا العرب البائدة الذين انقرضوا تماماً من الوجود . وورد ذكرهم فى الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والفرقان . ومن هؤلاء العرب البائدة ، العمالقة ، والهيكسوس الذين ملكوا مصر فترة من الزمن ، ثم طسم ، وجديس ، وعاد ، وهم قوم سيدنا هود ، وثمود قوم سيدنا صالح ، ومدين ، وجرهم . أما القسمان الكبيران ، فالذين يسكنون منهم فى شمال الجزيرة ، فى الحجاز ونجد والعروض ، كانوا يسمونهم عرب الشمال ، أو العدنانيين . أما الذين سكنوا اليمن فى جنوب الجزيرة العربية ، فكانوا يعرفون بالقحطانين ، أو العرب العاربة .

وأهل الشمال من العدنانين ، يرجعون فى نسبهم إلى سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما السلام من زوجه هاجر الجارية المصرية ، وتزوج ، سيدنا إسماعيل من قبيلة جرهم التى كانت تسكن آنذاك حول مكة ، وأنجب اثنى عشر ولداً ،



شبه جزيرة العرب

انحدر منهم عرب الشمال ، أو العدنانيون . هذا ، وتنقسم القبائل العدنانية إلى فرعين رئيسين : علك ، ومعد. أما الفرع الأول فلم يكن له شأن يذكر ، وأما معد فانقسمت إلى قسمين : نزار ، وقنص . ومن نزار تفرعت ربيعة ، ومضر ، وأياد ، وأنمار .

ومن مضر انحدر قريش ، وهو جد القرشيين ، واسمه فهر ، وجاء من نسله رسولنا الأعظم صلوات الله عليه وسلامه . وكانت قريش ذات النفوذ الروحي فى بيت الله الحرام ، أيام الجاهلية الأولى ، وصاحبة المكانة العظيمة فى تجارة العرب ، بين الشام واليمن ، فى رحلتى الشتاء والصيف ، التى ورد ذكرهما فى القرآن . وكانوا فوق هذا وذاك أفصح العرب لساناً ، وأعذبهم حديثاً ، حتى إن القرآن نزل بلغتهم ، فزادها تثبيتاً وتشريفاً .

ومن أشهر قبائل أهل الجنوب ، من القحطانيين ، كهلان ومنهم الأوس والخزرج الذين سكنوا المدينة المنورة ، ونصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن الجنوبيين أيضاً السبئيون ، وكانوا أكثر مدنية من عرب الشمال وأعرق حضارة ، وقد برزوا بشكل خاص فى هندسة المبانى والسدود (الخزانات) ومن أشهر سدودهم التاريخية سد مأرب ، وله قصة مشهورة فى التاريخ ، ومن أبرز شخصياتهم بلقيس ملكة سبأ ، التى جاء ذكرها فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام .

هؤلاء العرب ، كانوا قبائل متفرقة ، لا يجمع بينهم دين ولا قانون ، وكانوا يتقاتلون لأتفه الأسباب ، ويبالغون فى الأخذ بالثأر ، حتى فنيت بعض قبائلهم ، وساءت حالهم جميعاً ، وتعرضت أطراف بلادهم إلى غزو الممالك المجاورة ، مثل الرومان والفرس والأحباش ، مما اضطر بعضهم إلى الهجرة عن طريق البحر الأحمر إلى أفريقيا ، فسكنوا بلاد الحبشة ، وسواحل البحر

الأحمر ، وتوغلوا فيما يعرف الآن بالسودان بالذات، غير أنها لم تكن ذات أثر فعال وإنما الهجرات الهامة هى تلك التى جاءت بعد ظهور الإسلام ، وبعد فتح مصر على وجه التحديد .

عهد الفتوحات الإسلامية الأولى

فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى (٦١٠ م) جاء جبريل بالرسالة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وبذلك دخل العرب فى مرحلة جديدة من حياتهم .

انتهت الجاهلية الحمقاء ، وبدأ الإسلام الحنيف ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فتدفق نور الهداية يعم السهول والوديان ويطبق الآفاق ويزحم الكون وإذا الجزيرة العربية تستيقظ بعد رقاد وتتحرر بعد استعباد لتحمل لواء الإسلام وتحطم الأصنام: (قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً).

ها هى ذى جيوش العرب من قحطان وعدنان من عرب الشمال والجنوب تتحرك تحت لواء واحد هاتفة بأروع شعار عرفته البشرية : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فى أخوة تامة وإخلاص نادر وسجلوا بذلك أعظم الفتوحات فى تاريخ البشرية وساروا من نصر إلى نصر .

فتحت مكة المكرمة بعد أن وقفت طويلا تكيد للرسول وأصحابه ثم توالت الفتوحات وجشت الجيوش وأرسلت الرسل

إلى جميع الجهات تبشر وتفتح وقدمت الوفود من كل الأصقاع تؤيده وتبايع إلى أن التحق الرسول بالرفيق الأعلى ثم تولى من بعده خليفته أبو بكر الصديق بعد أن كاد الأمر يؤدى إلى شقاق بين المهاجرين والأنصار أو بمعنى آخر بين أهل مكة وأهل المدينة وسار على هدى الرسول ونهج على نهجه، وفى أيامه ارتدت بعض القبائل عن الدين ورفضت أن تدفع الزكاة فحاربها وكان بعض أصحابه لا يوافق على الحرب فقال قوله المشهور : « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لحاربتهم عليه حتى يؤدوه» وكان من أبرز قواد هذه الحروب التى ع فت فى التاريخ باسم حروب الردة سيدنا خالد بن الوليد .

ولم تطل مدة حكم الصديق والتحق بالرفيق الأعلى وأعقبه على الخلافة الفاروق عمر الذى قال فيه رسول الله : « ما سلك الفاروق فجاً إلا وسلك الشيطان فجا غيره » وفى أيامه تم فتح العراق والشام وفلسطين تحت قيادة سيدنا خالد وسيدنا سعد بن أبى وقاص وسيدنا عمرو بن العاص وسيدنا أبى عبيدة عامر بن الجراح كما تدفقت سيول المسلمين تحت قيادة عمرو بن العاص نحو مصر وفتحها عام ٦٤١م وهنالك وقفت جيوش المسلمين على حدود النوبة تنتظر التعليمات من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لفتحها.

عهد الكنيسة السودانية (النوبية) :

السودان كلمة أطلقها العرب على كل البلاد الواقعة جنوب

مصر والتى يسكنها السود، ويدخل فيها سوداننا المعروف اليوم بحدوده، وكذلك السودان الفرنسى، ونيجريا والحبشة، كما كان يسمى اليونان سوداننا المعروف اليوم «أثيوبيا» ومعنى ذلك الوجه الأسود، وكان يسميه المصريون القدماء « نوبيا » أى بلاد الذهب،وكانت تعرف عند القبائل السامية باسم بلاد كوش، نسبة إلى «كوش بن حام بن نوح، وقد جاء ذكر ذلك فى التوراة .



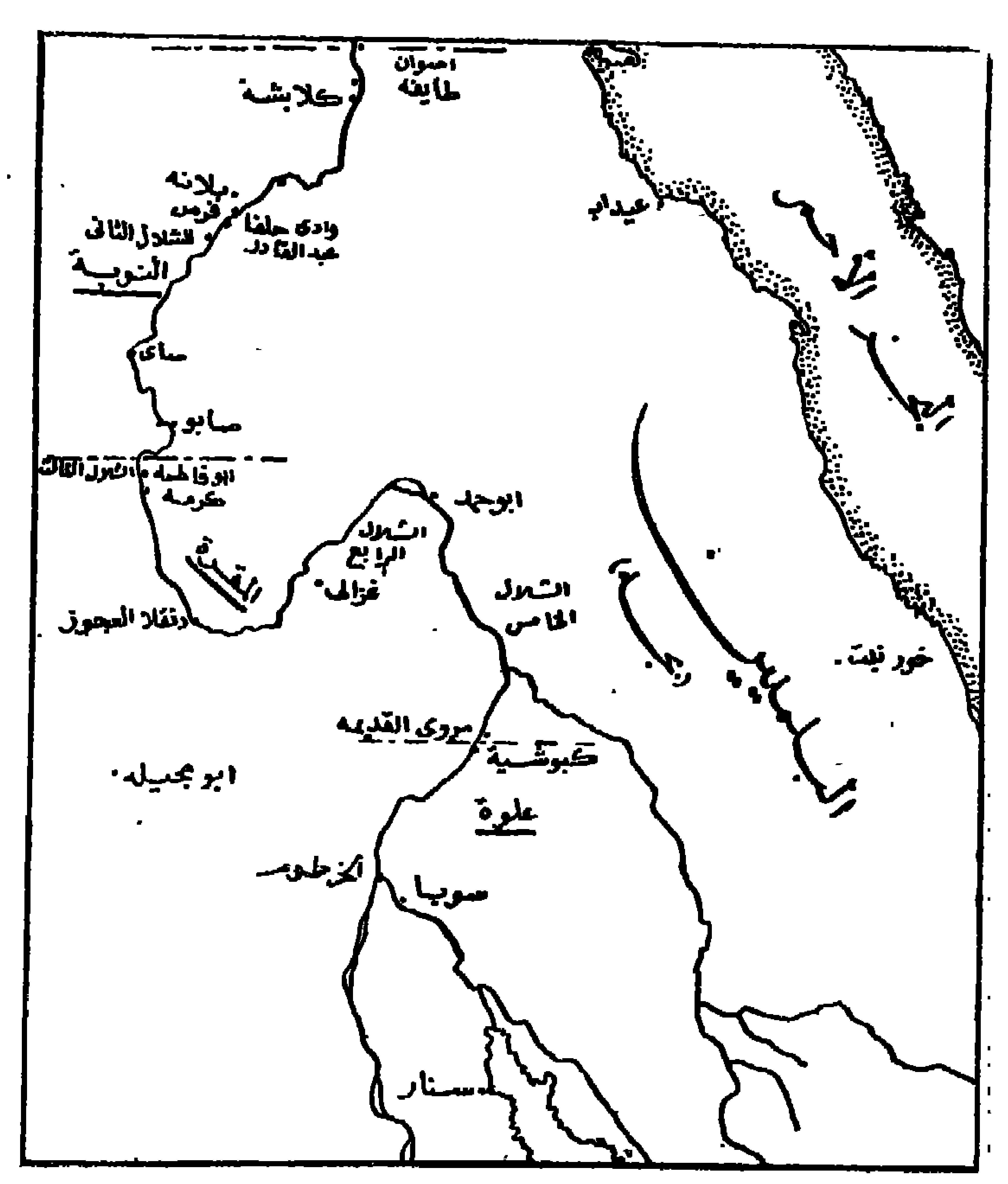
كنيسة نوبية

كان فى السودان، فى أيام الفتوحات الإسلامية الأولى وأيام فتح مصر على يد عمرو بن العاص، دولتان مسيحيتان : إحداهما تسمى مقرة، وعاصمتها دنقلا العجوز والأخرى علوة، وعاصمتها سوبا، وكانتا مختلفتين فى المذهب، إذ كانت الأولى على مذهب الملكان، والثانية على مذهب اليعاقبة، والمعروف

أن المسيحية دخلت إلى بلاد النوبة حوالى عام ٥٤٥ ميلادية عن طريق مصر ، فاعتنقها النوبيون وبنوا الكنائس العظيمة ، التى لا تزال آثارها باقية فى كثير من مدن السودان الشمالى ، تربو على الستين كنيسة توجد بقاياها فى كلابشه ، والمحرقة ، وفريق ، ودنقلا العجوز ، وصنم ، وغيرها . ويقول المؤرخون إنه كان فى سوبا وحدها ما يزيد على أربعمائة كنيسة . وكانت الكنيسة النوبية فى المقرة تابعة فى إدارتها إلى كنيسة الإسكندرية القبطية ، وكانت تستعمل اللغة اليونانية لغة لها فى أداء الطقوس الدينية ، وقد وجد منقوشاً على جدران بعض المقابر التى ترجع إلى العهد المسيحى ، عبارات باللغة اليونانية .

ومملكة مقرة هذه ، أو النوبة السفلى ، هى أقرب بلاد النوبة إلى مصر . وتمتد حدودها من الشلال الأول إلى الشلال الرابع . وكانت المنطقة الواقعة شمال حلفا إلى أسوان تسمى « مريس» وعليها حاكم من قبل ملك دنقلا ، يلقب بصاحب الجبل ، وعلى هذا الحاكم مراقبة الحدود ومنع هجرة العرب إلى ما وراء ذلك ، أما فى مريس نفسها فقد كان مصرحاً للمسلمين العرب بالتجارة والاستيطان فملك منهم خلق كثير الضياع الواسعة ، والأراضى الزراعية التى كانوا يؤدون خراجها إلى ملك النوبة .

أما علوة ، فكانت تمتد من حدود الشلال الثالث ، إلى ما وراء ملتقى النيلين جنوباً ، وكانت عاصمتها سوبا. وأول هذه



خريطة بلاد النوبة فى العصور الوسطى

المملكة ، مما يلي دنقلا وفى الموضع المعروف اليوم بكبوشية ، يسمى « الأبواب» وعليه حاكم من قبل ملك سوبا يطلق عليه لقب « الرحراح» .

وكانت الكنيسة المسيحية فى سوبا كذلك تابعة فى إدارتها للكنيسة القبطية فى الإسكندرية ، وكانت أيضاً تستعمل اللغة اليونانية فى أداء الصلوات . وقد تأثرت علوة المسيحية كثيراً بفتح العرب لمصر إلا أنهم ، هم وأهل المقرة ، ظلوا على دينهم قروناً طويلة ، وبذلوا أرواحهم ومالهم فى الذود عنه ، والحفاظ عليه . وكانوا ذوى شجاعة نادرة فى القتال ، شهد لهم بها خصومهم العرب ، حتى سموهم « رماة الحدق » أى الذين يصيبون العيون إذا رموا بسهامهم فى الحرب مبالغة فى إصابة الهدف ، ولم يسلموا إلا بعد جهاد طويل مرير .

أما شرق السودان فقد ظل أهله وثنيين يعبدون الكواكب طوال فترة دولتى النوبة المسيحيتين . ولهم أيضاً حروب طاحنة ، وأيام مشهورة مع العرب ، انتهت بإسلامهم مؤخراً جداً ، ودخولهم تحت راية الدولة الإسلامية .

هذه هى حال شمال وشرق ووسط السودان ، أيام فتح مصر . أما الجنوب والغرب فقد ظلا فترة طويلة بعيدين عن الصراع الدينى ، وظلا فى وثنيتهما إلى أن دخلتهما القبائل العربية بعد خروجهما من الأندلس ، كما هاجرت إليها القبائل التى دخلت السودان عن طريق مصر .

عهد الهجرة العربية

أرسل عمرو بن العاص الوالى على مصر فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عبد الله بن سعد بن أبى سرح لفتح بلاد النوبة وكان ذلك عام ٦٤١ م ولكن « رماة الحدق » كانوا على أتم استعداد للذود عن حياضهم مما اضطر القائد المسلم أن يرجع دون عاصمتهم ولكن بغنائم كثيرة بعد أن عقد معهم صلحاً . ولكن هذا لم يرض عبد الله بن سعد فعاود الكرة مرة أخرى عندما أصبح واليا على مصر فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان بعد عشر سنوات من حملته الأولى فقاد جيشاً عظيماً لحرب النوبة وفتح عاصمتهم دنقلا العجوز .

المعركة : ها هى ذى دنقلا عاصمة المقرة تبدو ظاهرة للمحاصرين وهى على ربوة عالية بينها وبين النيل أرض زراعية خصبة تكثر فيها أشجار النخيل والفاكهة . وها هى ذى تلك السواقى معطلة خوفاً من الغزاة العرب والكل يبدو فى شغل شاغل يدافع عن العاصمة و « قليدرون » الملك وحاشيته يوالون اجتماعاتهم داخل الكنيسة العظيمة يضعون الخطط ويقلبون وجهات النظر فقد طال الحصار على أهل دنقلا وبدأ الناس يموتون جوعاً والمسلمون يشددون الخناق .

المحاربون من أهل دنقلا أشداء مدربون على رماية السهام

من بعيد وقد قتلوا خلقاً غير قليل من العرب وفى الحقيقة أنهم كانوا على وشك الانتصار برغم ما أصابهم من جوع وإرهاق لولا أن المسلمين بعد أن فرغوا من صلاة التراويح ذات مساء بدأوا ينصبون آلة غريبة تسمى « المنجنيق » ترسل حجارة هائلة تدمر كل ما يعترضها فى الطريق وما هى إلا ساعات قليلة إلا والكنيسة العظيمة تنقلب أنقاضاً خاوية ويدب الهلع والفزع بين المحاربين الذين لم يشهدوا « المنجنيق » من قبل وقد فت فى عزائمهم هدم كنيستهم فرفع « قليدرون » راية التسليم البيضاء من فوق أنقاض الكنيسة وأرسل بعض رجاله بخطاب للقائد المسلم عبد الله ابن سعد بن أبى سرح يعرض فيه قبول الهدنة والدخول فى مفاوضات ، وبعد أخذ وعطاء ورجوع الوفد مرات إلى دنقلا خرج قليدرون بنفسه فى ذلة ومسكنة خاضعاً يطلب الأمان فلقيه القائد المسلم بالإكرام والإجلال وقربه إليه وكان يقول للقوم من حوله : « أكرموا عزيز قوم ذل » وكتب القائد المسلم بينه وبين قليدروف شروطاً تتلخص فى ما يلى .

١ — على النوبة أن يؤدوا جزية سنوية قدرها ٣٦٠ رأساً من الرقيق تدفع لوالى المسلمين فى مصر .

٢ — على النوبة ألا يعتدوا على المسلمين فى مصر ولا يؤذوهم إذا هم مروا ببلادهم .

٣ — على لنوبة أن يتولوا العناية بأمر مسجد المسلمين الذى بنوه فى دنقلا العجوز .

وقفل الجيش المظفر عائداً إلى مصر وأقام قليلا.رون يصلح من شأن دولته المخربة .

النص الكامل للمعاهدة

« بسم الله الرحمن الرحيم، عهد من الأمير عبد الله بن سعد ابن أبي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته . عهد عقده على الصغير والكبير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة ، إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة . إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي — صلى الله عليه وسلم — ألا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وإن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنكم ، وعليكم حفظ

المسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصلياً وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه . وعليكم فى كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب ويكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . تدفعون ذلك إلى والى أسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان فإن أنتم آويتم عبد المسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين . بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله محمد — صلى الله عليه وسلم— ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك . كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة ٣١ هـ » .

مع صاحب الجبل فى أسوان :

لا بد أن مدينة أسوان العظيمة تستعد اليوم لحدث عظيم فهنالك حركة غير عادية فى القصر « قصر الجزية » الذى كان يقع على بعد ستة أميال من المدينة وعلى مقربة من جزيرة « بلاق » . بدأ الناس — بعض الناس — فى كنس الشارع

الرئيسى المؤدى إلى ذلك القصر الجميل والذى كان يمر بكثير من البساتين المليئة بأشجار النخيل وأنواع البقول .

وها هى ذى وفود العرب من سكان المدينة بدأت تتجه نحو القصر وهم فى أزيائهم الجميلة المختلفة فمنهم لابس العقال والعمائم والشيلان ومنهم حاسر الرأس الذى أسدل شعره طويلا على منكبيه وربطه بخيط من شعر أسود وهو يلف وسطه بحزام من جلد ركز فيه خنجراً عظيماً يرتفع إلى صدره ثم أولئك جماعة أخرى يتكلمون بلهجة أهل المغرب وآخرون برطانة النوبة الكل مبتهج متفائل وروائح العطور والريحان والبخور تفوح من ثيابهم المزركشة الجميلة .

وهذا هو موكب أمير أسوان وقد امتطى الجميع صهوات الخيول العربية الفارهة الأمير فى المقدمة وعلى يمينه حاكم أسوان وعلى يساره قاضيها ومن ورائهم اثنا عشر شيخاً عربياً ويليهم كوكبة من الفرسان تحمل السيوف والدروع .

ما الخبر يا ترى وأى حدث هذا الذى تستقبله أسوان اليوم؟ نعم ما كان لنا أن ننسى فاليوم هو يوم تسلم الجزية من بلاد النوبة أو (البقط) كما كانوا يسمونها — فهيا إلى القصر .

وفى حفل بهيج تقدم «صاحب الجبل» وهو لقب الحاكم النوبى على المنطقة التى تلى أسوان ومعه بعض أعوانه وبدأ يقرأ باللغة اليونانية شيئاً مكتوباً فى صحيفة من جريد النخل. وإلى جواره ترجمان ينقل ما يقوله إلى العربية .

« ثلاثمائة وستون رأساً من العبيد — الجزية المقررة » .
« عشرون رأساً لأمير مصر المعظم — هدية زائدة » .
« وعشرون رأساً لخليفته أمير أسوان هدية زائدة » .
« وخمس رءوس لحاكم أسوان هدية زائدة » .
« رأس واحدة لكل من الشهود العدول الاثنى عشر من أهل أسوان هدية زائدة » .

وبعد ذلك ينتهى صاحب الجبل من قراءة ما فى الصحيفة ويصمت الجميع ثم يقف أمير أسوان ويأتى خطاباً رائعاً يشكر فيه الحاضرين ويثنى على النوبة فيخرج الجميع ويبقى أمير أسوان وصاحب الجبل وهما يتحدثان فى أمر هام ومعهم الترجمان فيم يا ترى يتحدثان ؟

أمراء السودان فى بغداد

عاشت مملكتا سوبا ودنقلا المسيحيتين تحت إدارة ملوكهما من النوبة وهما أشد ما تكونان صلابة فى الوقوف فى وجه المسلمين بالحرب تارة والمدارة والمفاوضة تارة أخرى . ومن الجانب الآخر كان المسلمون دائماً فى شغل شاغل وعمل متواصل فى إنهاء الخلافات الداخلية ووضع الخطط للفتوحات الخارجية فبعد مقتل سيدنا عمر بن الخطاب تولى الخلافة سيدنا عثمان بن عفان ثم قتل وتولى من بعده سيدنا على بن أبى طالب فقتل

وانتقلت الخلافة بعد الأربعة الراشدين إلى بنى أمية وأول خلفائهم سيدنا معاوية بن أبى سفيان وكانت مدتهم ألف شهر وكانت عاصمتهم دمشق فى بلاد الشام ثم تولى الخلافة أبناء العباس عم الرسول وهرب من نجا من الأمويين إلى شمال أفريقيا ثم دخلوا شبه جزيرة إسبانيا وأسسوا دولة أموية على يد عبد الرحمن الملقب بصقر قريش وكانت تلك الدولة درة ثمينة فى تاج الفتوحات الإسلامية إلى أن اعتدى عليها ملوك البربر والإفرنج وطردوا المسلمين العرب فاضطروا إلى الهجرة إلى كثير من الجهات ومنها غرب السودان وأول خلفاء العباسيين أبو العباس السفاح وكانت عاصمتهم بغداد فى العراق . ومن خلفائهم هارون الرشيد المشهور ثم أبناؤه الأمين والمأمون والمعتصم ، وفى عهد المعتصم أوفد أحد ملوك النوبة ابنه لمقابلة أمير المؤمنين فى بغداد والتفاوض معه فى شأن الجزية .

وفد دنقلا : دنقلا العجوز فى حلة زاهية تودع أميرها المحبوب « فيرقى » ابن الملك زكريا . . . الطبول تدق والخيول ترقص على أنغامها ومشروب « الدكاى » الذى يصنع من التمر يقدم للناس فى أزيار ضخمة . . . حتى رجال الكنيسة اشتركوا فى الوداع — ذهب الجميع إلى الكنيسة وقد أضيئت الشموع ودقت الأجراس وبدأ القسس يرددون الصلوات باللغة اليونانية فى أزيائهم الغريبة والمصلون يرددون من ورائهم بنفس اللغة وبعد نهاية الصلاة تقدم كبير القسس إلى الأمير ومسح على

رأسه بصليب كبير كان فى يده ورسم علامة الصليب فى الهواء فى عدة جهات فارتفعت الأصوات بالدعاء للأمير بأن يعود سالماً وتحرك الوفد فى رعاية الأب والابن والروح القدس .

وفد البجه : وكانت فى نفس الوقت «هجر» عاصمة بلاد البجه تحتفل بوداع ملكها الذى أبى إلا أن يشخص بنفسه إلى بغداد للتفاوض فى تقليل المفروض على قومه من الجزية . فقدم أهل هجر القرابين وذبحوا الذبائح أمام صنمهم الأكبر وهو قائم على ربوة عالية كانت تطل على المدينة وتقدم عليه القوم بهدية رمزية لملكهم وكانت عبارة عن صنم صغير مصنوع من الذهب الخالص فتسلمه الملك شاكراً ثم تحرك الوفد على ظهور الابل البجاوية المعروفة وفى حراسة رجال أشداء يحملون الدرق والسيوف وقد قاموا بألعاب بهلوانية تسحر الألباب .

فى بغداد : وفى الطريق قبل وصول بغداد توحد الوفدان النوبى والبجاوى بعد أن تفاوضا فى عدة مسائل مشتركة واتفقا على إثارة نقاط خاصة، ودخل الوفد بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

كانت بغداد قد علمت من أمير مصر بقدوم الوفد إليها فاستعدت له الاستعدادات اللائقة وأمرت أن تقام لهم الزينات فى جميع البلاد التى يمرون بها إلى أن يدخلوا بغداد ففرحت بهم مصر وقابلهم الشام مقابلة عظيمة أما بيت المقدس فقد بالغ فى الاكرام بالأمير فيرقى وضيوفه المسيحيين . وبغداد نفسها فقد

قامت بإفراد قصر عظيم على نهر دجلة للوفد وقد فرش بأحسن الفرش وزين بأعظم الزينات وبالغ الخليفة المعتصم فى إكرامهم فوكل إلى الجوارى الحسان القيام بخدمة الوفدين وخلع عليهم الهدايا العظيمة وكان من جملة ما أهدى لهم القصر الذى أفرده ببغداد لضيافتهم وأجابهم لطلبهم بجعل الجزية مرة بعد كل ثلاث سنوات لا مرة فى كل عام كما كان سابقاً وأمر أن تعطى لهم مرتبات قدرها سبعمائة دينار وفرس وسرج ولجام وسيف محلى وعمامة وقميص ورداء وثياب أخرى كثيرة لأصحاب الأمير تدفع من بيت مال المسلمين فى مصر عند تسليم الجزية، هذا وأمر أن تشترى لهم دار فى كل منزلة يقيمون بها فى طريق عودتهم لبلادهم وقد اشترى للأمير فيرقى قصراً بالجيزة وآخر ببنى وائل كما أطلق سراح جميع المحبوسين من النوبة فى سجون مصر إكراماً لأميرهم العظيم الذى رفض أن يطلب أى شىء آخر عند ما طلب منه الخليفة المعتصم ذلك بقوله : « اطلب ما شئت أيها الأمير العظيم » فقد رفض الأمير فيرقى أن يطلب شيئاً غير الإفراج عن أفراد رعيته المسجونين فى مصر فأكبر المعتصم منه ذلك وأجابه إليه .

فى بلاد البجه

البجه من سكان شرق السودان الأقدمين، والذى لامراء فيه أنهم عاشوا زمناً طويلا قبل ظهور الإسلام فى شواطىء

البحر الأحمر حيث لا يزالون، ويرجع نسبهم إلى الشعوب السامية التى هاجرت من جزيرة العرب .

لم يتأثر البجه كثيراً بالتعاليم المسيحية التى كانت سائدة فى الممالك المجاورة لهم : فى مصر ، دنقلا ، سوبا ، الحبشة ؛ وظلوا وثنيين يعبدون الظواهر الطبيعية والكواكب ويتخذون الأصنام إلى أن جاءهم الإسلام .

وكان وادى العلاقى دائماً يجذب أنظار حكام مصر فى مختلف العهود ولم يشذ العرب المسلمون فى ذلك بل هاجروا فى جماعات كبيرة وسكنوا فى وادى العلاقى حول مناجم الذهب وكان من أشهر مهاجريهم عرب ربيعة وجهينة وبلى ولا يزال البجه يعرفون اللغة العربية على أنها (باوى) نسبة إلى قبيلة بلى

بدأ العرب يختلطون بالسكان كعادتهم — وكان ذلك بعد فتح مصر — ويتزاوجون فنشأت علاقة متينة بين ربيعة وقبيلة الحدارب الذين كانوا يسكنون قريباً من المناجم حتى إن أحد أمراء ربيعة على منطقة المناجم كان إذا خرج فى موكبه يركب فى ثلاثة آلاف من ربيعة ومضر واليمن وثلاثين ألفاً من الحدارب .

ولما فتح عبد الله بن أبى السرح دنقلة حاول أن يجهز جيشاً لفتح البجه ، ولكنه عدل عن ذلك لوعورة الطريق وقلة الماء ولم يتعرض لهم أحد من المسلمين إلى أن كثرت أذيتهم على المسلمين وغاراتهم عليهم فى أسوان وكان ذلك فى خلافة المأمون بن هارون

الرشيد فأرسل إليهم أمير مصر آنذاك عبد الله بن الجهم عام ٨٣١ ميلادية ودارت بين الفريقين وقائع طاحنة التقت فيها الفرسان وكثرت الضحايا من الجانبين وانجلى غبار المعركة عن هزيمة البجه وقبولهم للشروط الآتية وكان ذلك بين ملكهم كنون الذى كان يسكن فى عاصمته هجر :

١ — يعد المسلمون بإعطاء الأمان لكل سكان إقليم البجه على شرط أن يعلنوا أنهم تابعون لخليفة المسلمين .

٢ — يبقى ملك البجه حاكماً على إقليمه .

٣ — يدفع البجه الخراج المعتاد كما كان يفعل أسلافهم .

٤ — يقدم البجه كل التسهيلات اللازمة للمسلمين المقيمين أو المارين بأرض البجه ويظهرون الاحترام التام للعقيدة الجديدة وألا يسمحوا لأحد بالطعن فيها .

النص الكامل للمعاهدة

«هذا الكتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير ابن إسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله فى شهر ربيع الأول سنة ستة عشر ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجه بأسوان. إنك سألتنى وطلبت إلى أن أؤمنك وأهل بلدك من البجه وأعقد لكم ولهم أماناً على وعلى جميع المسلمين فأجبتك إلى أن عقدت لك على وعلى جميع المسلمين أماناً ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتنى وشرطت

لى فى كتابى هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد
أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دُهلك وباضع ملكاً
للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى وأنت
وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أنك تكون فى بلدك
ملكاً على ما أنت عليه فى البجه وعلى أن تؤدى إليه الخراج فى
كل عام على ما كان عليه سلف البجه وذلك مائة من الإبل
أو ثلاثمائة دينار وازنة داخله فى بيت المال والخيار فى ذلك
لأمير المؤمنين ولولاته وليس لك أن تحرم شيئاً عليك من الخراج ،
وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكتاب الله أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به أو قتل
أحداً من المسلمين حرًّا أو عبداً فقد برئت منه الذمة ذمة الله
وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة
جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذراريهم .
وعلى أن أحدا إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال أو دله
على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمة
عهده وحل دمه . . . . وعلى ألا تهدموا شيئاً من
المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم
طولا وعرضاً فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة ؛ وعلى أن كنون
ابن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلا يفى المسلمين بما
شرط للمسلمين من دفع الخراج ورد ما أصابه البجه للمسلمين
من دم ومال . . . . وترجم جميع ما فى هذا الكتاب

حرفاً ركريا بن صالح المخزومى من سكان جدة وعبد الله بن إسماعيل القرشى» .

أقام البجه ٢٥ عاماً على العهد الذى قطعوه على أنفسهم لعبد الله ثم نقضوه وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين فى وادى العلاقى حول المناجم وفى أسوان بصعيد مصر فأرسل الخليفة المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد قائده محمد بن عبد الله القمى واليه على أسوان وقفط والأقصر وإسنا وأرمنت وأمره بحرب البجه وأمر عامله على مصر فى أن يمد له يد العون وقد تكون جيشه من ٢٠ ألف فارس وسبعة مراكب أرسلت بالبحر محملة بالمؤن لحرب البجه الخارجين عن الطاعة .

كان زعيم البجه واسمه «على بابا» شجاعاً داهية فلما التقى الجيشان عام ٨٥٦م جعل يماطل فى اللقاء آملا فى أن تطول مدة الحرب فيهلك جنود المسلمين من الجوع والظمأ مما اضطر القمى إلى أن يعمد إلى حيلة جعلته يكسب الحرب بين عشية وضحاها وذلك بأن علق أجراساً على أعناق خيل المسلمين جعلت جمال البجه تفر أمامها على سماع صليل الأجراس وتم بين الفريقين صلح كانت هذه أهم شروطه :

(١) يدفع البجه الجزية المتأخرة عليهم والتى منعوها مدة أربع سنوات .

(٢) يستمر البجه فى دفع الجزية بانتظام مستقبلا .

(٣) يقوم على بابا بزيارة إلى الخليفة فى بغداد .

ورغم هذا فإن البجه لم تقم طويلا على العهد، وبالرغم من كثرة هجرة العرب من ربيعة وجهينة، فقد امتنعوا عن الجزية وأغاروا على صعيد مصر مرات وكان المسلمون يردونهم ويأمرونهم بدفع الجزية.

هذا ولم يكن إسلام البجه إثر فتح معلوم أو تاريخ معين. كما كان الحال فى إسلام دنقلا أو سوبا أو النور بل كان نتيجة لاختلاط طويل بين البجه والعرب المسلمين وأول قبيلة اعتنقت الإسلام هى قبيلة الحدارب التى اندمجت الآن فى البشاريين وكان اختلاطها بعرب ربيعة كما رأينا ومن الخليط البجاوى العربى ظهرت قبائل ضخمة دخلت كلها فى دين الإسلام وهى :

العبابدة — البشاريين — الأمرار — الهدندوة — الحلانقة — الحباب — وبنو عامر. هذا وبقى البجه من غير أن تضمهم حكومة إسلامية موحدة إلى أن جاء الفتح التركى.

ومن أقدم مدنهم سواكن المعروفة، وعيذاب وهى فى المكان المعروف الآن برأس راوية، وكانت عيذاب هذه ملتقى الحجاج من مصر والمغرب وكان بينها وبين قوص فى مصر طريق برى تسلكه قوافل الحجاج فى ١٧ يوماً، كما كانت ملتقى التجار من الحبشة والهند.

عهد حكومات القبائل

ظلت العلاقة بين المسلمين فى مصر وبقية بلاد النوبة تسير فترة من الزمن سيراً حميداً وفق المعاهدات التى وقعها



حاكم بلاد النوبة المسيحى
وهو يحمل شعار الكنيسة التى يعتبر مؤسسها

ملوك النوبة مع ولاة مصر المسلمين وهذه العلاقات الودية كانت عاملا مغرياً يشجع القبائل العربية — كلما تأزمت علاقاتها مع الحكام فى مصر أو بغداد — على أن ينزحوا جنوباً ويستوطنوا بلاد النوبة، وحتى الأمراء كانوا يلجأون ساعات الكرب ويطلبون الحماية من ملوك النوبة ونورد لك فيما يلى قصة آخر أمراء مصر من الأمويين :

قصة الأمير الأموى :

لما تولى عبد الله السفاح زمام الأمر بعد القضاء على دولة بنى أمية أرسل يتعقب الأمويين فى كل مكان، وكان على مصر آنذاك عبيد الله بن مروان الحمار فلما بلغه ذلك دخل إلى خزانة أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ثم أحضر اثنى عشر بغلا وحملها ذلك المال وشيئاً من القماش والفرش وغير ذلك وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان وخرج من مصر هارباً فتوجه نحو بلاد النوبة وأرسل للملك يأخذ الأمان فعاد الرسول يقول : إن الملك يقرئك السلام ويقول لك أمحارباً جئت إليه أم مستجيراً، فقال له الأمير رد عليه السلام وقل له بل مستجيراً من عدو يريد قتله. وغاب الرسول ساعة وعاد ليعلن قدوم الملك فأمر عبيد الله ففرشوا المكان وجعلوا مرتبة فى صدر المكان برسم ملك النوبة وجلس يترقب مجيئه فأقبل ملك النوبة وهو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسم وعليه بردان قد ائتذر بأحدهما

وارتدى بالآخر ومعه عشرة من رجاله معهم حراب بأسنة تلمع وخلفهم عشرة آلاف محارب . فلما وصل إلى حيث يقف الأمير المسلم بادر ملك النوبة بتقبيل يده وأشار عليه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة فأبى وصار يدفعها برجله فقال عبيد الله للترجمان فى ذلك فقال ملك النوبة : قل للأمير كل ملك لا يكون متواضعاً لله فهو جبار عنيد متكبر . ثم صمت ساعة ورفع رأسه إلى الأمير يسأله كيف سلبتم ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟ فقال له عبيد الله : إن الذى سلبنا ملكنا أقرب إلى نبينا منا ، فقال له ملك النوبة ، فكيف أنتم تلوذون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمور وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم وتركبون فى سروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئاً من هذا ، وبلغنا أنك لما وليت على مصر كنت تخرج إلى الصعيد وتكلف أهل القرى مالا يطيقون وتفسد الزرع على الناس وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى وكل هذا لأجل كركي تصيده ثمنه سبعة أنصاف أو ثمانية ، وصار ملك النوبة يعدد على الأمير عبيد الله جملة ذنوب والأمير عبيد الله ساكت لا يتكلم بحرف واحد ، ثم قال له ملك النوبة : كما استحللتم ما حرمه الله عليكم سلبتم ملككم وأخذ منكم وأوقع بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم وأنا أخاف على نفسي إن أنزلتك أن تحل بى تلك النقمة التى حلت بكم والبلاء عام والرحمة مخصوصة ، ثم قال له ارحل من أرضى بعد ثلاثة أيام وإلا أخذت

جميع ما معك وقتلتك شر قتلة ، فلما سمع الأمير عبيد الله ذلك خرج من أرض النوبة من يومه ورجع إلى مصر .

فتح دنقلا :

ولكن هذه العلاقات كان يعقبها فى بعض الأحيان تمرد وعصيان من قبل النوبة ورفض لدفع الجزية وغارات على أسوان يموت فيها خلق كثير وفى الحقيقة أن النوبة كانوا كلما أصاب المسلمين ضعف أو قامت بينهم فتن يغتنمون الفرصة وينقضون العهد الشيء الذى اضطر أمراء مصر إلى حرب النوبة مرات عديدة واحتلال جزء من أراضيهم وقطع علاقاتهم بالكنيسة القبطية ومحاصرة بلادهم ، ولكن شرف الفتح الأخير كان من نصيب السلطان الناصر بن قلاوون سلطان مصر فى عهد الأتراك المماليك البحرية .

اشتد الحصار على مدينة دنقلا حتى يئس ملكها « كربيس » من النصر فخرج مختفياً وهرب إلى سوبا محتمياً بجارته الدولة المسيحية ودخل المسلمون دنقلا فاتحين وأجلسوا على عرشها واحداً من أقارب الملك الهارب ولكن العرب فى دنقلا اغتالوه وأجلسوا مكانه الملك الذى هرب[1] ، وكان قد أسلم

---

(١) ألقى القبض عليه ملك سوبة وأرسله إلى مصر وهنالك اعتنق الإسلام

وعاد من مصر ثم انتقل إليهم الملك بعد قليل من الزمن وبذلك دخلت جميع بلاد النوبة فى الإسلام وسقطت عنهم الجزية . وقد سجل العرب القائمون تاريخ فتح دنقلا على حجر من الرخام وضع فى جامع دنقلا الذى بناه المسلمون على أنقاض الكنيسة المسيحية بالعاصمة وكان ذلك فى يوم ٩ يونيو سنة ١٣١٨ ميلادية وبذلك انتهت المسيحية التى اعتنقها أهل النوبة زهاء سبعة قرون .

حكومات القبائل :

وكان يسكن فى أسوان على حدود مملكة دنقلا بعد فتح العرب لمصر قبائل عربية من قحطان ونذار بن معد وربيعة ومضر وقيس والهوارة . وكانوا يملكون ضياعاً واسعة فى بلاد النوبة وأخذت هذه القبائل تنتشر رويداً رويداً فى وادى النيل جنوباً فقامت أحياء عربية فى دنقلا وما جاورها من بنى هلال وجهينة وربيعة وازدادت هجرتهم خاصة فى أيام الأتراك المماليك بعد أن دالت دولة العرب فى بغداد بعد خرابها على يد التتر ، تلك القبائل المتوحشة التى تحركت من أواسط آسيا وخربت بغداد وبعد خراب بغداد قامت دويلات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض إلى أن استولى بعض الأشراف الذين ينتسبون إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله على مصر وسموا دولتهم « الدولة الفاطمية » ومن أشهر قوادهم جوهر الصقلى مؤسس القاهرة فى عهد البطل فاتح مصر المعز لدين الله . ومن أشهر

أعمالهم بناء الأزهر الشريف، ثم استولى صلاح الدين الأيوبى على مصر وأسس دولة عرفت فى التاريخ بالدولة الأيوبية وقامت على أنقاضها فى مصر دولة عرفت بدولة المماليك وهم رقيق من الأتراك تولى الحكم إلى أن فتح مصر السلطان سليم الفاتح من سلاطين الأتراك العثمانيين. وكان أكثر المهاجرين من القبائل البدوية المتجولة من رعاة الإبل فأحب هؤلاء العرب البدو حريتهم ودينهم ففروا من وجه الطغيان التركى والاضطهاد الأعجمى إلى سهول السودان الفسيحة ووديانه الخصبة بعيدين عن التسلط والطغيان فبقوا بذلك عرباً ومسلمين ورفعوا راية العروبة والإسلام خفاقة على مهجرهم الجديد ولم يبقوا منعزلين عن بقية أهل البلاد بل اختلطوا بهم وتزوجوا منهم ولم يمض زمن طويل حتى آل الملك إليهم عن طريق أمهاتهم وبدأت كل قبيلة تحكم الإقليم الذى نزلت فيه فنشأت حكومات قبلية تعرف بأسماء القبائل، منها حكومات ثلاث كانت على درجة من القوة والسطوة، وهى :

(١) دار الجوابرة : تمتد من شلالات حنك إلى حلة التيتى، ويدخل ضمنها ممالك أرقو ومقاصر والخناق. ويسكن هذا الجزء خليط من قبائل الجعافرة والغربية والكنوز، والأخيرون ينسبون إلى ربيعة، نفس القبيلة التى ينتسب إليها آل سعود فى نجد، هاجروا من نجد والعراق إلى مصر، ثم بلاد النوبة. وقد استولوا على حكم دنقلا العجوز، بعد فتحها على يد

الناصر بن قلاوون .

(٢) دار البديرية : وتمتد من التيتى إلى حدود الشايقية ، عند جبل أبنعوف ، وكانت لهم أمارات فى الخندق ، ودنقلا العجوز ، وتنقسى ، وأبكر ، والدفار ، وكانت عاصمتهم دنقلا العجوز .

(٢) الشايقية : وتمتد من جبل أبنعوف إلى الشلال الرابع ، وهى أربع ممالك :

ا — حنك
ب — كجبى
ج — مروى
د — عمرى

ودار الشايقية تعتبر أقصى الحدود جنوباً ، لما كان يسمى مملكة مقرة ، فى عهد الكنيسة السودانية . أما العرب فى مملكة علوة فى هذا العهد ، فلم تكن لهم ممالك أو إمارات ، بل كانوا رعايا يخضعون للملك سوبا المسيحى ، وكانت أعدادهم تتزايد بشكل عظيم ، فانتشروا فى الأبواب ، والبطانة ، وأرض الجزيرة وما جاورها إلى حدود الحبشة .

ونزح منهم قوم إلى غرب السودان ، وتوغل فى سهوله ووديانه وهذه القبائل رغم عدم قدرتها على قيام دولة إسلامية موحدة ، كانت أكثر القبائل النازحة إلى السودان وعياً وإدراكاً ، وأكثرها مشاركة فى حفظ التراث الإسلامى ، والدعوة إليه ، بدليل أنه

لم يبق فى دنقلا بعد فتحها بقليل شخص واحد على غير دين الإسلام .

العهد الفونجى فى السودان

بعد مقتل سيدنا عثمان الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسلمون فى محنة وبلاء عرفت فى التاريخ بالفتنة الكبرى ذلك البلاء الذى كان يتمثل فى الخلاف بين سيدنا على وسيدنا معاوية فى المطالبة بالأخذ بثأر عثمان وانتقل الخلاف بعد مقتل سيدنا على إلى خلاف بين الحسن ومعاوية إلا أن معاوية قد استطاع أن يقنع سيدنا الحسن ابن على بالتنازل عن الخلافة وأصبح هو الخليفة ومن حوله بنو أمية يؤيدونه ويشدون من أزره يبغون بذلك الغلبة على أبناء عمومتهم من بنى هاشم الذين سادوا عليهم بفضل الإسلام. وظهور النبى من بيت هاشم وليس من بيت عبد شمس جد الأمويين وإن كانوا جميعاً يرجعون فى نسبهم إلى قريش

استقر معاوية وجعل عاصمته دمشق فى بلاد الشام حيث كان والياً عليها من قبل سيدنا عثمان بن عفان وأصبح بعد ذلك الحكم فى بنى أمية بالوراثة ينتقل من خليفة إلى آخر وفى خلال فترة حكمهم توسعت الإمبراطورية الإسلامية فعمت بلاد فارس وخراسان وبخارى وبلاد الهند والصين وشمال أفريقيا واسبانيا إلى « بواتيه » على حدود فرنسا وكان الأمويون يتعصبون

للعرب على العجم وبذلك بنوا دولة عربية خالصة إلى أن دب إليها الضعف الذى ينتاب الدول الكبرى التى تعتمد على عنصر معين من الأتباع واضطهاد العناصر الأخرى والتى تعتمد على شخصية حكامها فثار الموالى والأعاجم والشيعة من أنصار سيدنا على والهاشميون الذين يطلبون بالخلافة باسم آل هاشم وقضوا على الخلافة الأموية بقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد عام ١٣٢ ه وعلى أنقاضها قامت دولة بنى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله فتفرق الأمويون فى البلاد هاربين من عسف العباسيين فهرب بعضهم إلى شمال أفريقيا ثم الأندلس وأسسوا هنالك خلافة باسمهم ، كما وصلت منهم أفواج إلى الحبشة والسودان وعرفت فى السودان باسم الفونج فى القرن الخامس عشر الميلادى وهكذا بدأ فى السودان عهد أموى آخر يعرف بالسلطنة الزرقاء أو مملكة سنار أو مملكة الفونج .

مملكة الفونج

مملكة الفونج : أسسها عمارة دنقس من قبيلة الفونج الأموية وعبد الله جماع من قبيلة القواسمه العربية الجهنية وكان ذلك عام ١٥٠٥ م بعد أن أغارا بجيشهما على سوبا وكانت تعانى انشقاقاً داخلياً بين رجالها واستولى عليها جيش عمارة وجماع واتخذ عمارة عاصمته سنار وجعل كل الأراضى الواقعة ما بين النيلين إلى حدود الحبشة والبجه تتبع له مباشرة ،

أما عبد الله جماع فاتخذ قرى عاصمة لمشيخته وبقى هو وكيلا عن عمارة على كل السودان الشمالى إلى حدود مصر .

ولم يكن قيام مملكة كهذه بالأمر الهين كما نتصور خصوصاً وأن السودانيين العرب إلى ذلك العهد لم يألفوا على الاطلاق العيش فى ظل حكمة واحدة تجمعهم بل كانوا يعيشون قبائل متفرقة لها استقلالها التام أو فى جماعات تجارية تعيش فى شكل جاليات صغيرة كما كان ذلك فى دنقلا العجوز قبل فتحها وسوبا قبل خرابها. هذا ما كان من أمر الصعوبات التى تقف أمام هذه الدولة الجديدة وبالإضافة إلى ذلك فقد كان لها أعداء يتربصون لها من الخارج وعلى رأسهم الأتراك العثمانيون الذين بدأوا يسيطرون على الخلافة الإسلامية وتم لهم فتح مصر بعد حوالى اثنتى عشرة سنة من قيام سلطنة الفونج وكان فتحها على يد السلطان سليم الفاتح الذى وصلت جيوشه إلى ميناء سواكن فلما سمع عمارة دنقس بنيته على الزحف على سنار اجتمع هو ووكيله عبد الله جماع وتشاورا فى الأمر وصمما على إرسال خطاب لسليم يفهمانه بالحسنى وإلا فالحرب وأقسم عبد الله جماع وهو يهز سيفه أن يجعل من سواكن مقبرة لهم جميعاً إن هم أرادوا الثانية، وإليك نص الخطاب بعد البسملة :

« لا أعلم ما الذى يحملك على حربى وامتلاك بلادى فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فإنى أنا وأهل مملكتى عرب مسلمون ندين بدين رسول الله وإن كان لغرض مادى فاعلم

أن أكثر أهل مملكتى عرب بادية وقد هاجروا إلى هذه البلاد فى طلب الرزق ولا شىء عندهم وتجمع منهم جزية سنوية »
وأرسل مع الخطاب كتاباً جمع أنساب قبائل العرب الذين كانوا فى المملكة وقد استعانوا فى ذلك بالإمام السمرقندى أحد علماء سنار فى ذلك الوقت ولما وصل الخطابان لسليم أعجب بهما وعدل عن الفتح وكفيت البلاد بذلك شراً مستطيراً .

امتدت سلطنة الفونج بقسميها المباشر وغير المباشر من الشلال الثالث شمالا إلى أقصى جبال فاذقلى جنوباً ومن سواكن شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً وقد كانت كردفان تدخل فى فترات متقطعة ضمن الحدود الغربية أما الحد بين مملكة سنار المباشرة ومشيخة قرى فكان فى أربجى بالقرب من الحصاحيصا وتداول حكم سنار سبعة وعشرون ملكاً كان آخرهم الملك بادى السادس الذى سلم سنار للجيوش التركية دون حرب عام١٨٢١م

وفى الصفحات القليلة التالية سنكون فى ضيافة أحد ملوك سنار .

فى ضيافة الملك بادى أبو دقن ـ أمير المؤمنين

١٦٤٣ م ــ ١٦٧٨ م

هذه سنار العظيمة عاصمة الإسلام الفتية وحامية العرب المنيعة والرافعة لراية الحضارة والمدنية فى السودان وذلك جامع سنار ترتفع مئذنته فى الأفق عالية شامخة وضوء الصبح ينعكس

على نوافذه النحاسية البديعة الصنع فيغشى العيون وإلى جانب الجامع الكبير يربض قصر السلطنة عاتياً وهو مكون من خمس طبقات بعضها فوق بعض وقد بالغ المهندسون من كل البلدان العربية فى إتقان صنعه ونقش جدرانه.وتزيين حجراته بما يليق وجلال الملك وعظمة السلطان خصوصاً وسنار كانت كعبة أمل للمسلمين العرب فى أفريقيا تقصدها وفودهم وعلماؤهم من كل مكان . وبالقصر ديوان فخم أعد بالفرش النادر والطنافس الجميلة لجلوس السلطان كما أعدت دواوين أخرى داخل القصر وخارجه لاستعمال الوزراء والخاصة من رجل البلاط ويحيط بهذا القصر المنيف سور عال له تسعة أبواب منها ثمانية لأمراء الدولة لكل أمير باب يدخل منه إلى ديوانه الخاص للنظر فى الشئون المتصلة به،أما الباب التاسع فخاص بالسلطان ومشايخ قرى،وأمام كل باب رواق فيه دكة عالية تعرف «بدكة من ناداك» وهى معدة للمتظلمين يأتونها دون أن يناديهم أحد وبعد دخولهم فيسألونهم عن حاجتهم وينظرون فى شكاواهم والقصر محاط فوق كل هذا بمخازن الأسلحة والذخيرة تحت إشراف حراس أشداء غلاظ .

نحن الآن فى قصر السلطان المعظم بادى أبو دقن وقد عادت جيوشه من فتح بلاد تقلى وفرض الجزية على سلطانها تأديباً له على سلبه مال أحد رعايا الملك بادى وقد جاءته الوفود مهنئة بهذه المناسبة السعيدة . دخلنا على السلطان وبدأنا نقول له. « أطال الله بقاءك يا طويل العمر » وقرأنا جميعاً الفاتحة وبدأنا

ندعو له بالنصر والتوفيق وما كدنا نفرغ إلا وضرب النحاس وتقدمت وفود المشيخات التابعة له رأساً بالتهنئة على هذا الترتيب :

وفد مشيخة خشم البحر ، وفد مملكة بني عامر ، وفد مملكة فازقلي ، ثم وفد مملكة الحلنقة، وبعد ذلك تقدم أحد الحاضرين من رجال العلم من خريجي الأزهر الشريف بمصر وتلا قصيدة أرسلها من مصر الشيخ المغربي يمدح بها السلطان :

أيا راكباً يسرى على متن ضامر ... إلى صاحب العلياء والجود والبر
ويطوى إليه شقة البعد والنوى ... ويقتحم الأوعار في المهمة القفر
وينهض من مصر وشاطئ نيلها ... وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها ... وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
وألق عصا التسيار في صرح أفقها ... تجد كل ما تهوى النفوس من البشر
وأهد سلاماً عطر الكون نشره ... ألذ من الماء المسلسل والقطر
وأحلى وأهنى من وصال بلا جفا ... وأعلى وأغلى من عقود من الدر
هو الملك المنصور «بادى» الذى له ... مدائح قد جلت عن العد والحصر
حمى حرمة الدين الحنيفي بالقنا ... وعزز فيه راية الفتح والنصر
وجرد للإسلام والملك صارماً ... أباد به أهل الغواية والكفر
له في صميم الملك مجد مؤثل ... تلقاه عن أسلافه السادة الغر

* * *

سليل ملوك الفونج والسادة الأولى ... علا مجدهم فوق السماكين والنسر
به أصبحت سنار في الأنس والصفا ... وتاهت على البلدان حتى على مصر

* * *

وقد جاءنى منكم كتاب معظم — وفى سلكه نظم الجواهر والدر
فقبلته ألفاً وحقـاً جعلتـــه — على الرأس تعظيماً وأودعته صدرى
تسلمت عبداً واحداً من صلاتكم — ونلت به فخراً وناهيك من فخر
فخذها من العبد الفقير قصيدة — منظمة كالدر فى خالص التبر
فمنوا عليها بالقبول وأنعموا — عليه بما ينجيه من غصص الدهر
فلا زلت فى أوج السعادة رافلا — وراجيك «باد» عن عطاء وعن شكر

* * *

سر الملك والحاضرون وقاطعوها فى كثير من الأحيان بعبارات الاستحسان وهز الرءوس ولم يكد الخطيب يفرغ من قراءتها حتى أمر السلطان أن تخلع الهدايا من الثياب الفاخرة عليه وترسل هدايا من السن والصمغ والريش والجوارى للشيخ المغربى وأسرع كاتب الديوان فحرر خطاباً مهره من أعلاه بختم السلطان وهو ختم مستدير مكتوب عليه هذا البيت من الشعر :

ومن تكن برسول الله نصرته — إن تلقه الأسد فى آجامها تجم

وتحت البيت مكتوب ملك ملوك السودان بادى أبو دقن .

هذا ، ثم خاض العلماء فى مسائل جدلية كثيرة تناظروا فيها.

ثم انفض المجلس فى ساعة متأخرة من النهار قبيل صلاة الظهر

النظام الإدارى فى مملكة سنار :

الممالك والمشايخ التابعة لملوك سنار رأساً :

ا ــ مملكة فازقلي من الرصيرص إلى فداسي وعاصمتها فازقلي .

ب ــ مشيخة خشم البحر ــ تقع شرقي النيل الأزرق بين رنقه والرصيرص وكانت تدعى أيضاً بمشيخة الكماتير نسبة إلى الشيخ محمد كمتور أحد رجال هذه المشيخة البارزين .

ج ــ مشيخة الحمدة . ومركزها ديبركي على نهر الدندر وهم في الأصل قواسمه وكانوا يلقبون ملكهم، بالمانجل كمشايخ العبدلاب .

د ــ مملكة بني عامر بين البحر الأحمر وخور بركة وعقيق وبلاد الحبشة وكانت تضم أربعة قبائل هي : بنو عامر والحاسه والبجه والنابتاب وتزعمت الأخيرة وأخذت القيادة من بني عامر والنابتاب هؤلاء أبناء نابت من قبيلة الجعليين .

هـ ــ مملكة الحلانقة ــ هم قبيلة من البجه ومركزهم جبل كسلا على القاش .

(٢) الممالك والمشايخ التي تتبع العابدلاب في قرى .

ا ــ مشيخة الشنابلة على النيل الأزرق شمال سنار ومركزها المسلمية ــ وأشهر مشايخها الشيخ شنبول .

ب ــ مملكة الجموعية ــ امتدت في غرب النيل الكبير

والنيل الأبيض من عقبة قرى إلى الترعة الخضراء ومركزها قيزان أولا دالملك المحينه . وأهم فروعها الجميعاب والسروراب والفتيحاب .

ج ـ مملكة الجعليين شمال مشيخة العابدلاب على أنقاض مروى وعاصمتها شندى وكان الحكم فيها لبيت السعداب .

د ـ مملكة الميرفاب .. شمال الجعليين ومركزهم بربر

هـ ـ الرباطاب . من وادى السنقير إلى شمال أبى حمد .

و ـ المناصير ـ شمال أبى حمد إلى الشلال الرابع ومركزهم السلامات .

ز ـ الشايقيه من الشلال الرابع إلى أبى دوم قشابى وعاصمتهم مروى وأخضعوا فى منتصف القرن الثانى عشر إمارات دنقلا وخربوا دنقلا العجوز نفسها وصالحوا ملوك تلك الجهات على نصف دخل بلادهم جزية يدفعونها لهم كما امتنعوا عن أداء الجزية لسنار كما هزمو المماليك الذين فروا من وجه محمد على باشا فرجعوا وبقوا فى مراغة إلى أيام الفتح التركى .

ح ـ مملكة الدفار فى حلة الدقار وقد خربها الشايقيه ففر أهلها إلى قنتى حيث لا تزال ذريتهم

تقيم هناك .

ط ــ مملكة دنقلا العجوز قامت فى القرن الرابع عشر الميلادى على أنقاض النوبة السفلى المسيحية (المقرة) واستمرت قوية إلى أن خربها الشايقية كما تقدم .

ى ــ مملكة الخندق : فى حلة الخندق

ك ــ مملكة الخناق . فى حلة الخناق وبها آثار لقصر يسمى قصر ودنمير أحد رجالاتها المشهورين .

ل ــ مملكة أرقو والحكم فيها لعائلة الزبير جد زبير الموجود الآن وهى آخر ما يتبع سنار من الممالك شمالا وبعدها تقع الأراضى تحت نفوذ قوم عرفوا باسم الكشاف .

الكشاف الأتراك :

غزا الأتراك العثمانيون مصر وفتحوها سنة ١٥١٧ م وأرسلوا حملة لإخضاع النوبة فأرسل السلطان سليم سنة ١٥٢٠ م جيشاً مكوناً من الجنود البوسنيين تحت قيادة أحد الأتراك ففتحوا بلاد النوبة إلى الشلال الثالث واستوطنوا هناك فأعفاهم السلطان سليم من دفع الضرائب ومنحهم إعانات مالية من الخزينة المصرية تساعدهم على البقاء فى تلك البلاد المجدبة وكانت عاصمتهم الدر وكان الحاكم منهم يحمل لقب الكاشف .

فى ضيافه عجيب المانجلك – شيخ قرى

١٥٦٣ ميلادية

جاءت الوفود إلى قرى تهنىء الشيخ الجديد بتوليته عرش أبيه مؤسس المشيخة العظيم عبد الله جماع ونحن الآن فى أيام رابع ملوك سنار الملك عمارة أبو سكاكين .

جاء الملوك التابعون لمشيخة قرى من جميع أنحاء السودان الشمالى ومع كل وفد عصبة من رجاله مهنئين وها هم يتقدمون لمصافحة الشيخ عجيب وهو جالس على دكة وعلى رأسه طاقية لها قرنان « أم قرون » والنحاس يدق والخيل ترقص طرباً .

ها قد بدأت الوفود تحيى وفد الشنابلة أولا ثم الجموعية ثم الجعليين فالميرفاب فالرباطاب فالمناصير فالشايقية أما وفد الدفار فوقف جانباً دون أن يحيى وأخذ مكانه وفد دنقلا فالخندق فالخناق فمملكة أرقو .

وبعد الفراغ من أداء فروض الولاء بدأ حفل آخر .

حفل تتويج

وقف الناس فى دائرة كبيرة وضع وسطها ككو تقدم إليه شيخ وقور هو ملك مملكة الدفار الجديد وهو فى ثوبه الأبيض النظيف وعمامته البيضاء الكبيرة وجلس على الككر بعد أن خلع عمامته فتقدم إليه الحلاق وحاق له ثم خرج من الدائرة ودخل

الشيخ عجيب المانجلك وهو يتمخثر فى مشيته بين الهتاف والزغاريد ووضع على رأس الملك الطاقية أم قرون . "

الشيخ عجيب : مبارك عليك يا ملك .

الملك : (ينهض من مكانه ويقبل يد الشيخ عجيب)

الشيخ عجيب : دقن النحاس يا فرخات . اعرضوا يا فرسان

الجميع : «يدخلون وسط الدائرة والنحاس يدق والزغاريد تملأ الفضاء والسيوف تلمع فى الأفق » .

الملك : (يعانق بعضهم) الله يخليكم ــ أنا بيكم مابلاكم

وهكذا تبيت قرى ليلتها فى أفراح متصلة وقد عج العرين بليوث الغاب من كل فج عميق وبات الشيخ عجيب تداعبه أحلام حلوة وتختمر فى رأسه أفكار . . . .



أحد ملوك السودان
وعلى رأسه الطاقية ذات القرنين

الثقافة فى عهد الفونج

لم يكن التعليم فى حكومة سنار تحت إشراف مصلحة حكومية أو إدارة نظامية مسئولة لأن هذا الوضع لم يكن معروفاً فى الدنيا القديمة وإنما كان التعليم شيئاً اختيارياً أهلياً تديره الجماعات والأفراد تطوعاً وإحساناً ويرحل إليه الطلاب من أقاصى البلاد غير عابئين بالصعاب التى تعترضهم فى سبيل العلم وتحصيله — هذا النوع الأخير من التعليم كان معروفاً فى الشرق المسلم وكانت سنار بلاشك آخذة منه بنصيب كبير حيث إن الخلاوى كانت منتشرة فى سهول السودان ووديانه وجباله وأدغاله منذ دخول العرب واختلاطهم بالسكان غير أنها ظهرت بنوع خاص على عهد الفونج وذاع صيتها حتى قصدها الناس من خارج الحدود السودانية ويمكننا أن نقسم هذا النوع من التعليم إلى قسمين .

(١) حفظ القرآن وتجويده .

(٢) التفقة فى الدين ويشمل علوم اللغة العربية جميعها .

وكانت الخلوة هى الجامعة السودانية التى يتلقى فيها طالب

العلم هذين النوعين من الثقافة فكان الطفل يقرأ القرآن ويتعلم التجويد وفى نفس الخلوة ينتقل إلى حلقة الدرس فيأخذ العلم على أحد الفقهاء كما يأخذ عليه الطريقة الصوفية وكانت تلحق هذه المدارس الدينية ما يشبه الداخليات فى الوقت الحاضر يأوى إليها الطلاب بعد الدراسة للراحة والأكل على حساب المحسنين من أهل القرى الذين كانوا يخرجون بطعامهم وشرابهم إلى الخلوة أو المسجد عن سجيه عربية أصيلة وكرم فطرى حتى كثر عدد الطلاب وأربى فى بعضها على الألفين وكان ملوك سنار يعفون المساجد والخلاوى وما يتبعها من أراض وماشية من الضرائب تشجيعاً لهم على مواصلة نشر العلوم .

والطريقة المتبعة فى تدريس علوم الدين فى ذلك العهد هى الطريقة التقليدية القديمة المعروفة فى الشرق العربى كله آنذاك . . . يجتمع الطلاب إلى عالم يدرس كتاباً أو كتباً يشرح درس اليوم ثم يناقش الدرس ويبحث بحثاً مطولا وهكذا إلى أن يتم الكتاب ثم بعدها يرحل من يريد منهم إلى غير هذا الشيخ ليدرس كتاباً آخر على شيخ اشتهر بتدريسه ومنهم من يذهب إلى مصر ليناقش علماءها ويأخذ عليهم ومنهم من يذهب إلى مكة فيلتقى بعلماء البلاد الشرقية ويتبادلون العلوم ووجهات النظر وقد تخرج من هذه المدارس الدينية فى السودان كل قضاة مملكة سنار المشهورين وعلمائها الأجلاء وأوليائهم الصالحين الذين لا تزال ضرائحهم تزار فى نواحى البلاد .

وأشهر تلك المدارس مدرسة أولاد جابر الركابى بالشايقية ويحق لنا أن نقول إن تلك المدرسة هى المعهد الدينى الأول فى السودان الذى تفرعت منه كل مدارسه فيما بعد وعلى أولاد جابر تخرج أشهر القضاة والعلماء والصالحين وكان لمعهدهم هذا فروع فى كورتى والدقار والشايقية ومن أشهر المدراس بعد أولاد جابر مدرسة الغبش فى بربر والمجاذيب فى شندى ومدرسة إسلانج وأخرى بأم عضام بالقرب من وادى شعير وأخريات بالحلفاوية دنقلا العجوز تحت رعاية أبناء سوار الذهب ثم حفير مشو وسنار والهلالية وأربجى . وفى ما يلى نبذة قصيرة عن أشهر تلك المدارس ؛

مدرسة العركيين

ولد الفقيه العالم الفاضل الشيخ محمود العركى بالأبيض فى أوائل أيام مملكه الفونج وسافر إلى مصر فى طلب العلم فأخذ على الشيخ الناصر اللقانى وأخيه الشيخ شمس الدين ثم عاد وسكن فى جزيرة الهوى على النيل الأبيض وبنى له قصراً هنالك يعرف باسم « قصير محمود » .

قام الشيخ محمود العركى بحركة تعليمية واسعة النطاق فأنشأ الخلاوى لتدريس القرآن وألحق بها مساجد لتدريس العلم فالتف

حوله الطلاب والعلماء من كل فج وجاءوه من الأقطار المجاورة ينهلون من علمه الجم وفيضه الغزير ، ويقول المؤرخون إنه كان ما بين أليس والخرطوم وحدها ١٧ مدرسة قرآنية تعرضت للخراب فى سنوات القحط ومن بينها سنة أم لحم المشهورة ، ومدرسة الشيخ محمود العركى تعتبر أسبق فى ظهورها من مدرسة أولاد جابر الركابى حيث إن الشيخ محمود كان زميلا للشيخ الأجهورى الذى أخذ عليه الشيخ البنوفرى الذى أخذ عليه أولاد جابر .

مدرسة أولاد جابر

هم إخوة : أربعة إبراهيم ، عبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم أبوهم جابر بن عون بن سليم بن رباط بن غلام الله الركابى الذى يتصل نسبه بسيدنا الحسين بن على رضى الله عنه .

هاجر أسلافهم عن طريق البحر الأحمر وسكنوا دنقلا العجوز واشتهروا بالعلم هنالك ولا تزال قبه الشيخ غلام الله ظاهرة تزار إلى يومنا هذا . ونزح بعضهم فى طلب العلم إلى مصر وتولى منهم عدد كبير منصب القضاء واليهم يعزى أكبر الفضل فى نشر الدين الإسلامى فى جنوب كردفان .

وأشهر الإخوة الأربعة إبراهيم الملقب بالبولاد لتضلعه فى الفقه ومعرفة أصول الدين ولد بترنج بدار الشايقية ثم رحل إلى

مصر وتفقه على يد الشيخ محمد البنوفرى تلميذ الشيخ عبد الرحمن الأجهورى زميل الشيخ محمود العركى وأحد تلامذة الشيخ الناصر اللقانى . رجع الشيخ إبراهيم إلى ديار الشايقية وفتح مدرسة قرآنية عظيمة كان لها أثر عظيم فى الثقافة الدينية بالسودان .

وأخته فاطمه بنت جابر كانت تضارعه علماً ومعرفة وصلاحاً وعلى يدها تخرج كثير من رجالات الشايقية ونسائها العالمات وهى إلى جانب نسبها الرفيع وعلمها الغزير كانت أماً من المنجبات الفاضلات لم تلهها حلقات الدرس ولا مجادلة العلماء عن الاعتناء ببيتها والإشراف على تربية أبنائها فقد أشرفت على تربية ابنها « صغيرون » الذى أصبح الشيخ صغيرون المعروف أحد العلماء البارزين .

مدرسة سوار الذهب

الشيخ محمد عيسى بن صالح سوار الذهب البديرى أمه السيدة حقيقة بنت الشريف حمد أبو دنانة الحسينى الذى قدم الأبواب فى أيام دولة سوبة المسيحية وسكن فى المنطقة التى تعرف بالمحمية اليوم وقد تزوج الشيخ عيسى بن صالح حقيقة بنت الشريف حمد فأنجب منها الشيخ محمد سوار الذهب كما تزوج ابنته الثانية الشيخ عبد الله جماع شيخ مشايخ قرى وأحد

مؤسسى دولة الفونج فأنجب منها الشيخ عجيب المانجلك المشهور .

أخذ الشيخ محمد سوار الذهب علوم القرآن والفقه والعربية عن والده ثم من بعده عن الشيخ محمد القناوى المصرى وغيرهم وكان بحراً فى علوم الفقه والقرآن والمنطق وكان له باع طويل فى العقائد وقد ضرب فى الزهد والصلاح شوطاً بعيداً مما جذب إليه الطلاب والمريدين من جميع أنحاء مماكة الفونج .

ومن أشهر تلامذته الشيخ الفقيه حسين أبو شعر شيخ أولاد برى والشيخ عيسى ولد كنو صاحب الخلوة المشهورة فى مشو والشيخ عبد الله الأغبش جد الغبش فى بربر والفقيه عبد الرحمن ولد أبو ملاح والد الشيخ خوجلى المعروف وقبته مشهورة بالخرطوم بحرى . ومن أشهر تلامذته فى التصوف الشيخ عووضه شكال القارح المدفون بدنقلا العجوز والشيخ عبد الله راجل قرى والشيخ عبد الرحيم بياع المطر والفقيه محمد ولد عباس راجل وهيبة وأنقاوى والفقيه محمد ولد أبو حليمة الركابى راجل شراوى .

هذا وكان الشيخ محمد عيسى سوار الذهب يتمتع باحترام عظيم لدى ملوك الفونج وأخواله مشايخ قرى وملوك الجعليين على السواء حتى إن الملك بادى أبا رباط كتب له عهداً يعطى فيه الأمان له ولجميع طلبته على أهلهم وأنفسهم وديارهم وأنه يجير كل من يجيرونه أو يلجأ إليهم ولن يمسهم أحد بمكروه

وكان هذا الامتياز يعرف فى دولة الفونج بالجاه ولا يتمتع بهذا « الجاه » إلاكبار العلماء من المقربين إلى ملوك الفونج .

هذا وكانت جميع أراضى سوار الذهب وملحقات مدرسته معفاة من الضرائب والعشور بل وكانت تجرى عليهم الاعطيات من حين لآخر ويرسل الملوك فى طلب الدعاء والتوجيه أيام الملمات والمحن من أبناء سوار الذهب وأحفاده الذين ظلوا يحافظون على إيقاد نار القرآن وتدريس العلم فى مدرستهم بدنقلا العجوز وفروعها فى جميع أنحاء السودان .

مدرسة الغبش

« نعمه أهل الغبشة » هكذا قال أحد ملوك الشايقية متعجباً عندما انجلت الشمس بعد كسوفها عقب فراغ الشيخ عبد الله البديرى من صلاة الكسوف وقد قرأ فيها سورة البقرة وآل عمران جهراً . والشيخ عبد الله البديرى هذا هو من أحفاد الشيخ كندمر الولى الصالح المدفون فى جزيرة تنقسى وهو الذى أصبح يدعى بالأغبش منذ تلك الحادثة وصار نسله من بعده يعرفون بالغبش — أخذ الشيخ عبد الله القرآن عن الشيخ محمد عيسى سوار الذهب فى دنقلا العجوز ثم رحل إلى دار الشايقية وتفقه على أولاد جابر المشهورين ثم عاد إلى بربر مسقط رأسه وأسس بها خلوة ما لبثت أن عمرت بالطلاب والفقهاء من كل مكان

واستمرت مدرسة الغبش تحمل شعلة الدين وراية الثقافة وتخرج الفوج تلو الفوج والعالم فى إثر العالم، وممن ذاع صيتهم من طلاب هذه المدرسة فى عهد الفونج الشيخ عبد الماجد بن حمد الأغبش وأخوه عبد الرحمن الأغبش وكان هذا صاحب مؤلفات ضخمة استفاد منها طلاب العلم إلى جانب ثرائه العظيم الذى كان ينفق منه بسخاء فى سبيل الله وعلى طلبة العلم والفقراء ورجالات الدين وكان لهذين الشيخين أربعة إخوة آخرون كانوا كلهم فقهاء وعلماء لهم مؤلفاتهم — مدارسهم وتلاميذهم وهم عبد الله وعلى وحسين وأبو قرين .

مدرسة تونى

كانت تونى والخرطوم والحلفاية مهداً لكثير من المدارس القرآنية المشهورة فى أيام دولة الفونج خرجت كثيراً من علماء وقضاة وأولياء السودان فقد خرجت مدرسة تونى الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن المشهور بأبى الجاز صاحب القبة المشهورة بالخرطوم بحرى ودرس الشيخ خوجلى القرآن فى مدرسة تونى على يد الفقيهه الأستاذة عائشه بنت ولد قدال ثم أخذ علم الكلام والتصوف على يد أرباب العقائد والفقيه الشيخ الزين ولد صغيرون وصغيرون هذا هو ابن الأستاذة الفقيهه فاطمة أخت أولاد جابر المشهورة .

كان رضى الله عنه قوى الشخصية مهاباً يلبس من الملابس أجملها وأغلاها ويضع على رأسه الطربوش الأحمر ويتعمم

بالشيشان الفاخرة ويحب الطيب والعود الهندى. ويجعل الزباد الحبشى فى لحيته وبلغ من هيبته أنه لم يعرف عنه أن قام فى مجلسه إجلالا لملوك الفونج أو مشايخ العابدلاب أو غيرهم أو تشفع عند أحدهم رغم مكانته السامية عندهم.

كان من أتباع الطريقة القادرية وظهرت على يديه كرامات كثيرة مشهورة وتخرج على يديه علماء أجلاء وصالحون فضلاء وتوفى رحمه الله ودفن عام ١٠٥٥ هـ.

ومن علماء توتى أيضاً الشيخ حمد صاحب القبة المشهورة بالخرطوم بحرى ويعرف بالشيخ حمد ود مريم نسبه لأمه مريم المحسية من بنات ولد قدال الولى المشهور ووالد عائشة بنت ولد قدال أستاذه الشيخ خوجلى والشيخ حمد مسلمى الأصل ولد بجزيرة توتى فى السنة نفسها التى توفى فيها الشيخ خوجلى وأخذ عن الشيخ أرباب الخشن المشهور بأرباب العقائد والشيخ أحمد بابه.

كان الشيخ حمد من الرجال الذين يغيرون على الإسلام ويحافظون على تبليغ الدعوة وإلى تنبيه الغافلين وقد اشتهر بمواعظه وزهده وتقشفه وكان رحمه الله مستجاب الدعاء وقد ثبت ذلك فى أكثر من موضع وتوفى عام ١١٤٢ هـ بعد أن ناهز الثمانين من عمره وخلف من الأبناء محمد النور ومحمد المقبول ومحمد الشفيع وكلهم على جانب عظيم من الدين والصلاح.

مدرسة سنار

وفى سنار عاصمة مملكة الفونج قامت مدارس قرآنية عظيمة جلس للتدريس فيها كبار العلماء والفقهاء والصالحين ومن أشهرهم الشيخ أرباب بن على بن عون المشهور بأرباب العقائد أو أرباب الخشن — أخذ الشيخ أرباب عن الشيخ على ود برى فى سنار وتفقه على يديه وجلس للتدريس من بعده فكثر طلبته من أرض الجزيرة ومن مماكة برنو وبقية بقاع السودان حتى بلغوا ما يزيد على الألف طالب وقد ألف كتاباً قيماً فى أركان الإيمان سماه « الجوهر » انتفع به خلق كثير من الطلاب وقد تخرج على يديه شيوخ للإسلام أجلاء منهم الحاج خوجلى والشيخ حمد ود عمر مريم والفقيه محمد حتيك وهارون ولد أبو حصن والشيخ فرح ود تكتوك والشيخ القرشى الصلبانى — توفى رحمه الله سنه ١١٠٢ ﻫ ودفن بمدينة سنار .

وأشهر الكتب التى كانت تدرس هى خليل والرسالة ثم كتب فى النحو وعلم الكلام والأصول والمنطق وقد ألفوا فى هذه العلوم وشرحوا وعلقوا بما لا يتسع المقام لإيراده هنا وكانت لهم خزانات من الكتب القيمة يحافظون عليها محافظة تامة ذهبت بمعظمها الحرائق والفيضانات وأتلف بعضها الإهمال فى أيام الحروب بين الممالك التابعة لسنار وفى حروب الهمج والحرب ضد الأحباش .

ولم تكن الصلة مقطوعة بين علماء سنار وغيرهم بل كان لسنار صوت مسموع فى الأزهر ورواق فى الحجاز وكانوا يتراسلون ويستفتون البعض فيما دق وصعب تأويله فى مسائل التشريع ومن القضايا التى شغلت الأذهان فترة من الزمان مسألة التمباك أهو حرام أم حلال ؟ . . .

فقد أفتى فى مصر شيخ الإسلام الأجهورى بإباحه بشربة وحرمه الشيخ إبراهيم اللقانى صاحب جوهرة التوحيد وقد دار نقاش فى الوقت نفسه بين علماء السودان عقدوا من أجله الحلقات وتناظروا أمام عجيب المانجلك شيخ قرى ومن أبرز المتناظرين فى هذا الموضوع الشيخ إدريس بن محمد الأرباب الذى كان يؤيد الشيخ اللقانى فى تحريم شربه والشريف عبد الوهاب رجل أم سنبل الذى كان يحلله كما فعل الشيخ الأجهورى وقد راسل الشيخ إدريس الشيخ الأجهورى فى هذا الموضوع وأظهر من الكرامات ما أقنعه بوجاهة رأيه فأرسل إليه الشيخ على الأجهورى هدية قيمة كرمز للتقدير والاحترام ظل أبناؤه من بعده يحتفظون بها إلى وقت قريب .

كما أن البنت فى مملكة سنار كانت تأخذ بنصيبها من القرآن والعلم على قدر ما تستطيعه دون قيد أو شرط حتى نبغ من بينهن نفر غير قليل مثل فاطمة أخت أولاد جابر التى كانت تضارعهم فى العلوم والمعرفة والصلاح وعائشة بنت

القدال التى كانت تدرس القرآن فى تونى وقد أخذ عليها القراءة فى أيامه الأول الشيخ خوجلى أبو الجاز المشهور .

وكان يهاجر إلى السودان علماء من أقطار إسلامية أخرى ويجلسون للتدريس فى الخلاوى المنتشرة فى البلاد فجاء من المغرب عبد الكافى المغربى أستاذ إدريس ود الأرباب فى التصوف ، ومن الأندلس من الجزيرة الخضراء الشيخ حسن ود حسونة وسعد ود شوشاى والتلمسانى المغربى ومن العراق تاج الدين البهارى وغيرهم .

وإلى جانب كل هؤلاء العلماء وفد أيضاً رجال التصوف الإسلامى يرشدون الناس وينشرون الطهر والسماحة اللتين عرف بهما التصوف الإسلامى وعقدوا حلقات الدرس وجلسات السلوك فالتف حولهم المريدون من كل مكان يستمعون إلى رجال التصوف وآراء عمالقة السلوك الصوفى أمثال محى الدين بن العربى والجنيد والحلاج وأهل الملامة والفتوة فكنت لا ترى فرقاً فى هذا بين سنار وبغداد ومراكش والحجاز فالكل مسلمون ينهلون من معين واحد ويتأثرون بمؤثرات واحدة ولا بد أن يكون النتاج واحداً .

وأول طريقة صوفية عرفها السودان كانت الشاذلية التى تنتسب إلى أبى الحسن الشاذلى من شاذلة بتونس وأدخلها الشريف محمد أبو دنانة عام ١٤٤٥ م وذلك قبل قيام سلطنة الفونج ، أيام مملكة سوبه المسيحية . جاء من مراكش وسكن فى

المكان الذى يعرف اليوم بالمحمية . والطريقة الصوفية الثانية كانت القادرية أدخلها الشيخ تاج الدين البهارى سنة ١٥٤٥ م ومؤسسها هو الشيخ عبد القادر الجيلانى فى العراق وعن الشيخ تاج الدين أخذ الشيخ محمد الأمين عبد الصادق وبانقا الضرير وعبد الله دفع الله العركى وعجيب المانجلك ابن عبد الله جماع مؤسس مشيخة العابدلاب . والطريقة الثالثة هى الطريقة الختمية وأدخلها فى أواخر عهد الفونج السيد محمد عثمان الميرغنى وهو تلميذ السيد أحمد بن إدريس – خرج من مكة وعبر البحر الأحمر إلى صعيد مصر ثم بلاد النوبة فدنقلا فكردفان وسنار وكان عمره إذاك لا يتجاوز السادسة والعشرين ثم هاجر إلى كسلا واستقر هنالك وأسس ضاحية الختمية وأخذ عنه خلق كثير ثم عاد مرة أخرى إلى مكة حيث مات ودفن .

هذا وقد كتب عن تاريخ هذه الحقبة من غير المؤرخين السودانيين المعاصرين لها رحالة من العرب والإفرنج كانوا يجوبون البلاد إما مستكشفين أو مارين فى طريقهم عبر السودان الذى كانت تمر به طرق القوافل من مصر والمغرب وسواكن والحبشة ، ومن أولئك الرحالة جيمس بروس الذى قام فى يناير ١٧٧٢ م فوصل أدبجى ثم الحلفاية ثم شندى فأسوان عن طريق شرق النيل وكان عائداً فى طريقه من الحبشة ومنهم أيضاً جون لويس بيركهاردت الذى اعتنق الإسلام فى الشام وسمى نفسه حاج إبراهيم بن عبد الله وقد قام فعلا برحلة من دراو فى ٢ مارس

سنة ١٨١٤ م فى زى فقير مسلم فوصل إلى بربر فالدامر فشندى حيث جاء فى وصفه أنه وجد بها سوقاً عظيمة للرقيق ثم تتبع نهر عطبره إلى أن وصل قوز رجب ثم كسلا فسواكن ثم منها عبر البحر الأحمر إلى جده ،وتوغل بعضهم ووصل إلى دارفور ومن هؤلاء محمدين عمر التونسى الذى جاء إلى السودان حوالى سنة ١٨٠٣ م وقضى فى دارفور مدة ثمانى سنوات ألف بعدها كتاباً اسمه« تشحيذ الأذهان لسيرة بلاد العرب والسودان » ، كما قام المستر و . ج . براون فى سنة ١٧٦٣ م بطريق القوافل من أسيوط إلى دارفور وكتب عن السكان والحكومة والعادات والأراضى شيئاً هاماً جداً أصبح فيما بعد المرجع الصحيح الذى أخذ عنه الجغرافيون الأوربيون عن دارفور إذ أنهم كانوا يجهلونها جهلا تامًّا بسبب تعذر الوصول إليها . وفيما يلى نورد على سبيل المثال وصفاً لدنقلا فى سنة ١٦٩٨ م كما وصفها رحالة فرنسى اسمه م . بونسيه .

دنقلا فى سنة ١٦٩٨

نقل النبذة التالية من التمهيد الذى قدمته الترجمة الإنجليزية لرحلات بونسيه . وهى مطبوعة فى لندن فى سنة ١٧٠٩ م « مسيو بونسيه طبيب ماهر عاش فى القاهرة ، عاصمة مصر ، ومن الشواهد الواضحة الدالة على قدرته ومهارته فى فنه أن إمبراطور الحبشة ، حين أصابه مرض عضال كان يهدد حياته ، قد

اقتنع بأنه أمهر طبيب يمكن أن يتولى علاجه » .

سافر بونسيه من القاهرة فى ١٠ يونيه ١٦٩٨ ، يصحبه « حاج على » أحد ضباط إمبراطور الحبشة ، والأب تشارلز فرانسيس إكسافير يوس دى بريفيدنت أحد المبشرين اليسوعيين وقد سافر عن طريق منفلوط ، وأبناه ، وحلاوى ، وشيب ، وسليمة .

يقول بونسيه « فى السادس والعشرين من أكتوبر ١٦٩٨ م وصلنا إلى « مشو » وهي ميناء طيبة فسيحة تقع على الضفة الغربية من نهر النيل وفى هذه البقعة ، يؤلف النهر جزيرتين ممتلئتين بالنخيل وأشجار السنامكى والحنظل . وتقع مشو فى ولاية الفونج ، ومشو هذه هى المكان الوحيد المعمور بين هذه لبقعة وحلاوى . وولاية الفونج هذه تابعة لملك سنار وهى أول لاد البرابرة . ولما عرف الأرباب وهو لقب حاكم هذه الولاية أن إمبراطور الحبشة قد أرسل فى طلبنا ، دعانا للذهاب إلى رجوس حيث يقيم . وتشرف هذه القصبة فى مواجهة مشو على الجانب الآخر من النيل ، وقد انتقلنا إليها فى قارب .

وتلقانا الحاكم بترحاب بالغ ، وأكرم وفادتنا يومين كانا إحة ومتعة لنا بعد أن كنا قد قاسينا متاعب جمة فى رحلتنا . فى أرجوس أيضاً يسكن شيخ الجباة وهو ابن ملك دنقلة .

« ولا يظهر هذا الشيخ أمام الناس إلا وهو ممتط ظهر جواده » وقد تغطى الجواد بمائتين من الأجراس النحاسية الصغيرة التى كانت تحدث مع الحركة صلصلة شديدة ،

ويلحق به اثنا عشر فارساً ومائتا جندى مسلحين بالحرابَ والسيوف . وقد زارنا فى خيامنا ، حيث قدمت له القهوة وأدى إليه الناس العوائد ، وهى عبارة عن صابون وأقمشة من الكتان . وشرفنا بدعوتنا ، فى اليوم التالى ، لتناول العشاء عنده . فذهبنا فى الموعد المضروب . فرأينا قصراً فسيح الأرجاء مبنياً بالآجر . له جدران عالية جداً ، تحدق به ، على مسافات معينة قلاع شامخة خالية من المنافذ ، ذلك أن هذه البلاد لا تستخدم المدافع وإنما تستخدم البنادق .

« بعد أن قضينا ثمانية أيام فى مشو غادرناها فى الرابع من نوفبر ووصلنا فى الثالث عشر من الشهر نفسه إلى دنقلا . وكل البلاد التى مررنا بها فى طريقنا إلى دنقلا ، بل التى تقع كذلك على طول الطريق إلى سنار ، هى بلاد ممتعة للغاية ، ولكن لا يتجاوز اتساعها ثلاثة أميال (فرسخ) أما ما وراء هذه المنطقة فصحارى موحشة . وينحدر النيل فى خلال هذا السهل الممتع ، له ضفاف عاليات بارزات . ومن ثم لم يكن الفيضان فى هذه التربة هو الذى يجلب الخصب والنماء ، كما يحدث فى مصر ، وإنما هو الصناعة والأعمال التى يقوم بها الأهالى . ولما كانت الأمطار تهطل نادراً فى هذه المنطقة ، فقد عنى الأهالى بالسواقى التى تديرها الثيران ، لاستخراج مقادير هائلة من الماء تجرى فى قنوات واسعة فى خلال أراضيهم يصنعونها لهذا الغرض . ثم يأخذون منها حاجتهم حين تواتى الفرصة لرى

أراضيهم . ولولا هذه الطريقة لاستحالت أرضهم قاحلة جرداء .

« والفضة ، فى ميدان التجارة ، لا قيمة لها فى هذه البلاد . فالمعاملة قائمة على تبادل السلع كما كانت الحال فى العصور البدائية . فالمسافرون يقايضون بالفلفل واليانسون وحبة البركة والقرنفل والفراء المصبوغة بالزرقة والعطور الفرنسية والمحلب المصرى ونحو ذلك مما يحتاجون إليه . وهم لا يأكلون من الخبز إلا ما صنع من الذرة ، ويصنعون منها نوعاً من الجعة الخاثرة لها طعم ردىء للغاية ولما كانت عرضة للفساد إذا طال بها الزمن اضطروا أن يصنعوها طازجة فى كل ساعة والرجل الذى يمتلك شيئاً من خبز الذرة ، وقرعة ملأى بهذا الشراب الكريه الذى يشربونه حتى يلعب برؤوسهم، إنما يعد نفسه سعيداً يجلب لنفسه طرباً عظيماً .

وبهذا الغذاء الضئيل ، يتمتع الناس هنا بصحة جيدة ، بل هم أكثر عافية وأشد قوة من الأوربيين .

« وبيوتهم من الطين ، سطوحها واطئة مغطاة بقصب الذرة أما خيولهم فهى حسنة المنظر للغاية ومناسبة جداً للركوب .

« وللخيل سرج مرتفعة جداً فى مقدمتها ومؤخرتها جميعاً ، وهى تتعب الحصان كثيراً .

« والشخصيات البارزة ، حاسرو الرؤوس ، وشعرهم مجدول فى هيئة حسنة ، وكل ما يلبسونه يتألف من نوع من الثياب الرديئة لا أكمام له . وسيقانهم عارية ولا يلبسون فى

أقدامهم إلا نعالا مجردة ومثبتة بأربطة .

« والناس يلفون أنفسهم بثوب من الكتان ، يرتدونه بمائة طريقة مختلفة . والأطفال عراة غالباً .

« والناس جميعاً يمتلكون الحراب ويحملونها معهم دائماً . ولها فى أطرافها سنان تشبه الصنانير . وبعضها ممشوق للغاية . والذين يحملون منهم السيوف يتنكبونها . والأيمان واللعنات شائعة جداً بين هؤلاء القوم الجهلاء . وهم إلى ذلك قوم غاوون ليس لديهم شىء من التواضع ولا المجاملة والتدين . وبالرغم من أنهم يعتنقون الإسلام فى الوقت الحاضر ، فإنهم لا يعرفون منه إلا مجرد مراسم شكلية يرددونها فى كل مناسبة . ومما يستدعى الأسى حقاً ، ومما هاج الدموع فى عينى صديقى العزيز الأب بريفيدنت أن هذه البلاد منذ وقت غير قصير كانت بلاداً مسيحية ، لم تختف المسيحية منها إلا لحاجتها إلى رجل يكون من الغيرة والحماس بحيث يكرس نفسه للتبشير فى تلك البلاد المهجورة .

وفى طريقنا عثرنا على عدد كبير من الصوامع والكنائس المخربة نصف تخريب . وقد قمنا برحلات قصيرة من مشو إلى دنقلا حتى ننعش نفوسنا بعد أن كابدنا تلك الرحلات الطوال التى مررنا فيها خلال الصحارى .

« وقد نقص عدد سكان هذه البلاد بتأثير الوباء الذى وقع منذ فترة لا تتجاوز سنتين .

« وكان هذا الوباء عنيفاً جداً فى القاهرة فى سنة ١٦٩٦

عند ما كنت هناك، حيث قدمت نفسي لخدمة المصابين ، وقد أكدوا لى أن الناس كانوا يموتون يومياً حتى بلغ عدد الموتى عشرة آلاف .

« وقد وقعت هذه الكارثة المفزعة فى مصر العليا كلها وفى بلاد البرابرة . حتى إننا وجدنا عدة مدن . وعدداً كبيراً من القرى خالية من السكان ، كما وجدنا مديريات شاسعة ، كانت يوماً ما غنية خصبة قد أتلفت إتلافاً ، وصارت خراباً بلقعا .

ولم تكد تلوح مدينة دنقلة أمام أعيننا ، حتى تركنا قائد القافلة وبادر إلى استئذان الملك فى أن يسمح له ولرفاقه بالدخول فى المدينة فأذن عن طيب خاطر . وكنا حينئذ فى قرية تعد ضاحية لمدينة دنقلا ، فعبرنا النهر فى قارب كبير أعده الأمير ليستخدمه العامة . وكل البضائع التى تنقل يؤخذ عنها رسوم ، أما المسافرون فلا يدفعون شيئاً . وتقع مدينة دنقلا على الضفة الشرقية من النيل ، فوق منحدر تل رملى مجدب . وبيوتها مبنية بناء رديئاً ، وطرقاتها شبه مهجورة ، معرضة للفيضان يأتيها من الجبل . وقصر الملك فى وسط المدينة تماماً . وهو قصر كبير فسيح ، ولكن تحصيناته ضعيفة لا يعتد بها . وهو مبعث رهبة فى نفوس العرب الذين هم سادة هذه المنطقة حيث منحت لهم الحرية فى أن ترعى ماشيتهم فى أرضها على أن يدفعوا جزية ضئيلة للملك ، ملك دنقلا .

وكان لنا الشرف فى أن نأكل مع هذا الأمير عدة مرات ،

ولكن كانت مائدتنا مستقلة . وعند ما سمح لنا بالزيارة الأولى ، كان يرتدى ثوباً من القطيفة الخضراء سابغاً إلى الأرض . وله حراس متعددون . فالذين يلازمونه يحملون سيوفاً طويلة فى أغمادها . أما الحرس الخارجى فيحملون أنصاف رماح . وقد زارنا هذا الأمير فى خيمتنا ، ولما كنت قد عالجته ببعض الأدوية فأثمر فيه العلاج ، دعانا للنزول فى ضيافته فى البلاط ، ولكن لم يكد يعرف ارتباطنا بأمبراطور الحبشة ، حتى تسامح فلم يجبرنا على البقاء . والملك وراثى ، وهو يؤدى الجزية لملك سنار .

رحلنا من دنقلا فى السادس من يناير سنة ١٦٩٩ ، وبعد أربعة أيام دخلنا مملكة سنار . وقد استقبلنا الأرباب إبراهيم على الحدود وهو أخو وزير الملك الأول . وكان استقباله كريماً ، وقام بالنفقات إلى أن وصلنا إلى كورتى وهى بقعة طيبة على النيل حيث كان فى صحبتنا وقد بلغناها فى الثالث عشر من يناير .

ولما كان الأهالى الذين يقيمون عبر مدينة كورتى ، على نهر النيل قد أعلنوا الثورة على ملك سنار ونهبوا القوافل التى تمر خلال بلادهم اضطرت القوافل إلى أن تشق طريقها بعيداً عن ضفاف النهر ، وأن تتجه فى مسيرها بين الجنوب والغرب لتخترق صحراء بيوضه الكبرى التى يستغرق اجتيازها مالا يقل عن خمسة أيام مهما يتخذوا من السرعة وهذه الصحراء ليست موحشة كصحراء ليبيا حيث لا يجد المرء فيها إلا الرمال . ففى

صحراء بيوضة يلتقى المسافر من حين لآخر بالحشائش والشجر . وبعد أن عبرنا الصحراء التقينا مرة أخرى بالنيل عند الضريرة وهى قرية هامة ، حيث استرحنا فيها يومين ، وهذه بلاد وافرة الخصب . ومن المحتمل أن وفرة خصوبتها هى التى جعلت السكان يطلقون عليها اسم « بلاد الله » .

وغادرنا البلاد فى السادس والعشرين ، وانعطفنا جهة الغرب ولم نجد فى طريقنا أثراً لقرية ما ، ولكن السكان الذين يقيمون فى الخيام ، يمدون المسافرين بما يحتاجون إليه . وبعد مضى بضعة أيام فى رحلتنا ، التقينا بالنيل مرة أخرى قريباً من قرى . وهناك يسكن أحد الحكام ، ومهمته الرئيسية هى فحص ما إذا كان فى القوافل التى ترد من مصر أى شخص مصاب بالجدرى لأن هذا المرض ليس أقل خطورة ولا أقل تدميراً فى تلك البلاد من الطاعون .

وقد أظهر هذا الحاكم نحونا مجاملة خاصة ، تقديراً لعرش الحبشة كما تدل على ذلك عباراتهم عند ما كانوا يذكرون ذلك الأمبراطور . وقد أعفانا من الحجز فى المحجر الصحى الذى كانوا يتخذونه عادة فى ذلك المكان الذى هو معبر للمسافرين فى النيل » .

قائمة ملوك الفونج

١ عماره دنقس
٢ عبد القادر ابنه
٣ نايل أخوه
٤ عماره أبو سكاكين أخوه
٥ دكين بن نايل
٦ طبل الأول
٧ أنسه الأولى
٨ عبد القادر الثانى
٩ عدلان بن أبه
١٠ بادى سيد القوم
١١ رباط ابنه
١٢ بادى أبو دقن
١٣ أنسه الثانى
١٤ بادى الأحمر
١٥ أنسه الثالث
١٦ نول
١٧ بادى أبو شلوخ
١٨ ناصر
١٩ إسماعيل

٢٠ عدلان الثانى
٢١ أوكل
٢٢ طبل الثانى
٢٣ بادى الخامس
٢٤ حسب ربه
٢٥ نوار
٢٦ بادى بن طبل (وقد حكم مرة ثانية بعد رانقى وعلى يديه سقطت سنار فى يد الترك وذلك فى مدة حكمه الثانى)
٢٧ رانقى

قائمة مشايخ العبدلاب

١ عبد الله جماع
٢ الشيخ عجيب المنجلك
٣ العجيل
٤ حمد السميح
٥ عثمان
٦ عبد الله الثانى بن العجيل
٧ مسمار بن عبد الله
٨ دياب
٩ الأمين ود مسمار

١٠ عجيب بن عبد الله
١١ عبد الله الثالث ود عجيب
١٢ عمر
١٣ محمد الأمين بن مسمار
١٤ بادى بن مسمار
١٥ عبد الله الرابع
١٦ ناصر ود الأمين
١٧ أمين الثانى بن ناصر
١٨ ناصر ود عجيب وقد حضر هذا الشيخ فتح إسماعيل باشا للسودان وقد عزله عن المشيخة فى مايو سنة ١٨٢١

قائمة ملوك الجعليين فى شندى

١ سعداب دبوس
٢ سليمان العداد
٣ إدريس بن سليمان
٤ عبد السلام
٥ الفحل بن عبد السلام
٦ إدريس الثانى
٧ دياب
٨ قنبلاوى

٩ بشارة
١٠ سليمان بن سالم
١١ سعد
١٢ إدريس الثالث
١٣ سعد الثانى
١٤ مساعد ابنه
١٥ محمد الملك
١٦ نمر وهو الذى أحرق إسماعيل باشا فى شندى ١٨٢١ م

ومدة حكمهم ٢٣٥ سنة

العهد الفوراوى

لما استولى العباسيون على الخلافة الإسلامية من بنى أمية جعلوا يستميلون إليهم العناصر غير العربية من الفرس والأتراك حتى إن ذلك كان سبباً قوياً فى إضعاف دولتهم وجعل خلفائهم لعبة فى أيدى الأعاجم وذلك بالإضافة إلى ما تعرضت له بغداد من الهجمات المغولية والتركية مما جعل السلطة تدريجاً تنتقل إلى غير العباسيين فقامت دويلات صغيرة مستقلة عن بغداد مما اضطر كثيراً من العباسيين إلى الهجرة إلى أفريقيا وغيرها من المهاجر العربية ومن ذلك يروى أنه ذهب من بنى العباس بعد انقراض دولتهم ببغداد سنة ١٤٢١ م شقيقان إلى تونس الغرب ومعهما نفر من الأعراب وكان اسم أكبرهما عليا وأصغرهما أحمد سفيان وكان على متزوجاً بامرأة ذات جمال وأحمد سفيان عازباً ولكنه كان آية فى الجمال فأحبته امرأة أخيه حباً لم يسعها معه الكتمان فكاشفته بحبها فأنكر عليها ذلك وعنفها ووعدها أن يكتم لها سرها أما هى فقد عزمت على الانتقام منه فأتت لزوجها ذات يوم وقالت إنى جئتك بأمر عظيم لا يحسن كشفه فاقسم لى أنك لا تبوح به لأحد فأقسم لها فقالت إن شقيقك أحمد يراودنى عن نفسى وأنا أنهره وأزجره وهو لا ينزجر فعظم هذا الخبر جداً على على ولكنه لم يصدق ما قالته له امرأته لأنه كان يحب أخاه محبة فائقة ويثق بعفافه وشهامته وظل مرتاباً فى الأمر وكان أحمد لما

رأى أن امرأة أخيه استاءت منه جعل يتلطف لها ويترضاها فرأى
أخوه منه ذلك فقوى الشك فيه وصدق ما قالته له زوجته فاسودت
الدنيا فى عينيه وكره أخاه وزوجته والأرض التى كان نازلاً فيها
فأمر أن تقوض خيامهم ورحلوا من تلك الأرض وتأخر فى الطريق
مع أخيه وهو يفكر بالذى يفعله يغالب نفسه أن يكاشفه بسر
زوجته ولم يطاوعه قلبه على قتله فقر رأيه أن يعقره برجله فيسمه
بوسم يؤنبه ما دام حياً فاستل سيفه وفاجأه بضربة فى رجله اليمنى
فعقره وتركه يسيل منه الدم ولحق بقومه . وأدرك أحمد
سفيان سبب غدر أخيه به ولكنه كان من الكبرياء على جانب
عظيم فلم يتكلم ولم يشك لأحد بل صبر على الضيم وجلس
ينتظر الموت والدم ينزف من عقر رجله ولهذا سمى أحمد سفيان
المعقور . ولما علم به عبيده وخاصته اجتمعوا حوله وعالجوه حتى
برئ جرحه فسار بهم بطريق الصحراء مهاجراً بلاد تونس حتى
أتى جبل مرة من أعالى دارفور وكان لذلك الجبل ملك يسمى
شاودورشيت كان كريم الطبع فلما علم بقدوم أحمد أحضروه
لديه فأعجبه عقله وأدبه فعهد إليه فى تدبير منزله وسياسة مملكته
فأحسن أحمد السياسة وأصلح من أمور المملكة وبلغ من حب
الملك له أن زوجه بنته الوحيدة فولدت له ولداً أسماه سليمان ولقبه
العرب سولونغ ومعناه العربى فشب ثاقب الفكر سديد الرأى
حسن السياسة حتى توفى أبوه أحمد سفيان ثم توفى جده السلطان
شاودورشيت فنادى به أهل الحل والعقد سلطاناً عليهم وكان ذلك

سنة ١٤٤٥ ميلادية وكان بذلك أول سلالة السلاطين العرب الذين تولوا حكم دارفور وظلت كذلك إلى أن دخلت دارفور فى حوزة الحكومة المصرية الخديوية على يد الزبير باشا كما سيجىء .

السلطان سليمان سولونغ ١٤٤٥ م — رأس الأسرة المالكة

حمل هذا السلطان لواء الإسلام خفاقاً فى ربوع دارفور وجعل عاصمته طره فى جبل مرة وأدخل فى الإسلام عدداً كبيراً من القبائل الوثنية المحيطة بجبل مرة والبعيدة عنه على السواء كما وحد كلمة المسلمين من القبائل العربية الأخرى واستنصر بهم مثل قبائل الرزيقات والهبانية والمسيرية وبنو هلبه والتعايشه والمعاليه والحمر والزيادية وبنو حسن والماهرية والحاميد . وبلغ جملة من دخل تحت لواء سلطنته ٢٧ ملكاً نذكر منهم ملوك البرق والتنجر والميمه والمسبعات والمراريت والعورة وسميار والمساليت والقمر وتامه وزغاوه إلى آخر ذلك وحكم من ملوك الفور ٢٦ ملكاً كان آخرهم السلطان إبراهيم الذى قتله الزبير باشا عام ١٨٧٥ م وضم مملكته إليه ثم أعلن تبعيتها فيما بعد إلى سلطان تركيا وبقيت دارفور كذلك إلى أن سلم حاكمها سلاطين باشا النمساوى لجيوش المهدية فى عام ١٨٨٤ م وبعد واقعة كررى عام ١٨٩٨ م وانهزام جيش المهدية فر إلى دارفور الأمير على دينار ابن الأمير زكريا وأعلن نفسه سلطاناً على دارفور وظل مستقلاً بها استقلالاً تاماً لقاء ضريبة معلومة كان يدفعها للحكومة

بالخرطوم إلى قيام الحرب العالمية الأولى حيث اتهمه الإنجليز بالتآمر ضدهم مع جيوش المحور فجهزت عليه حكومة السودان (الإنجليزى المصرى) جيشاً جراراً دخل دارفور فاتحاً فى عام ١٩١٦ م وقتل السلطان على دينار آخر ملوك الفور وبذلك انتهى عهد تلك السلطنة الذى بدأ فى منتصف القرن العاشر الميلادى بتلك القصة التى بدأنا بها هذا الوصف . قصة أحمد المعقور .

الإدارة فى مملكة الفور

كان سلطان الفور يقسم بلاده إلى أربعة أقسام حسب الجهات الأصلية ويجعل على كل قسم نائباً عنه يحمل لقب مقدوم يعينه بمرسوم ملكى ويختاره من خاصته وكان يساعد هؤلاء المقاديم الشراتى من أهل تلك الجهات ثم الدمالج والمشايخ وكانت أيضاً تتبع للملكة ممالك تؤدى الجزية وتقدم الطاعة كملكة البرق والتنجر والبرقو والميمة والداجو وغيرها عدا ملحقات المملكة من القبائل الجنوبية وكان السلطان من الفور يأخذ البيعة من رعيته وكان يجلس لهذا الغرض فى غرفة فى قصره تعرف بـ « الكالة » وبيده صوبحان الملك وهو جالس على دكة عالية ووزيره عن يمينه يلقن الناس بصوت مرتفع وهم يرددون « بايعتك على السمع والطاعة الأمر أمرك والنهى نهيك على السنة والكتاب . »

فى ضيافة سلطان دارفور

أمير المؤمنين — محمد الفضل وهو الرابع والعشرين من سلسلة ملوك الفور الستة والعشرين . وكان يلقبه قومه بقمر السلاطين وقد اشتهر بالكرم والفروسية وله فى ذلك قصص كثيرة وفى أيامه تم فتح السودان على يد إسماعيل باشا بن محمد على باشا .

وفى الصفحات التالية سنتخيل أننا نقوم بجولة فى دارفور ونزور الفاشر فى أيام هذا الملك العظيم (انظر آخر الفصل لمعرفة سلسلة ملوك الفور) .

كان سفراً متعباً طويلا شاقًّا ذلك الذى تعرضت له قافلتنا عندما خرجنا من النيل فى مكان قريب من الدبة يدعى مشرع أبى قسى ولما لاحت العاصمة فى الأفق ظهر الفرح والسرور على وجوه الجميع وتوقفت القافلة ريثما نصلح من حالنا قليلاً ونزيل بعض غبار الطريق . والفاشر فى كل يوم جمعة تستعد لموكب السلطان للصلاة فلا بد إذا أردنا مقابلته أن نسرع لندركه قبل خروجه وإلا تعذر علينا لقاؤه فى هذا اليوم .

دار السلطان — منزل السلطان كبير يبلغ محيطه حوالى ثلاثة أميال وهو من الطوب الأحمر وله سور عال فيه بابان كبيران باب للشمال وهو خاص بالرجال وباب جهة الجنوب خاص بالحريم ومنزل السلطان فى الوسط تماماً ومن كل باب من

البابين الكبيرين تتفرع سبعة أبواب شرقاً وغرباً وعند كل باب قطاطي للضباط .

أما حجرات السلطان فكانت من طابق واحد ولكنها فى غاية الروعة والدقة وقد علمت أن غرفة نوم السلطان قد كسيت جدرانها وسقوفها بالجوخ النادر الملون وكذلك بقية الحجرات الأخرى وكان السلطان يجلس فى غرفة تسمى « التيرمة » لمقابلة الخاصة من الناس وله غرفة أخرى تسمى « كالا » لاستقبال العامة .

نحن الآن فى التيرمة غرفة هائلة غطيت حيطانها وسقفها بالجوخ الملون وها هو السلطان يلبس قميصاً مقصباً فوقه برنص مقصب يجلله شال كبير من الكشمير ويلبس على رأسه تاجاً مزركشاً بالذهب تحف به سبع ريشات رهيفه من الذهب والفضة على شكل الأمواس وفى رجليه حذاء أصفر غريب الصنع علمت فيما بعد أنه مجلوب من أسطنبول فى تركيا وقد تمنطق بسيف محدب محلى بالذهب. جلس السلطان على عنقريب وضعت فوقه سجادة فاخرة وعن يمينه مخدة محشوة بالقطن ومكسوة بالجوخ الأحمر وبعد أن قمنا بمراسيم المقابلة ظللنا راكعين على ركبنا فى انتظار بقية الداخلين وها هو ملك فرتيب يخلع نعليه وطاقيته وسلاحه خارج التيرمة وكذلك يفعل باقى رجاله ثم يدخلون ويلقون بأنفسهم على الأرض يتدحرجون كلهم كجذوع النخل يحملها السيل إلى أن صاروا قريباً جداً من السلطان ثم

اعتدلوا وبدأوا يدعون للسلطان ويصفقون بأكفهم عقب كل دعاء ثم دخل من بعدهم قاضى العاصمة ووفد من العلماء وهم يلبسون الجبب والقفاطين من أفخر الأقمشة ويضعون على رؤوسهم طرابيش مغربية من غير عمائم ثم يتقدمون نحو السلطان — إنهم لا يفعلون كما فعل من قبلهم بل يسيرون ورءوسهم تنظر إلى الأرض ثم يجلسون ويقرأون وأكفهم مرفوعة والسلطان يحذو حذوهم وبعد قراءة الفاتحة يدعو العلماء للسلطان بطول العمر والتوفيق والسلطان يقول آمين عقب كل دعاء .

هذا الأمر لا شك غريب علينا ولقد وجدت عناء كبيراً جداً فى تقليد أصحابى عند ما وفدنا على السلطان أول مرة وكنا قد أخبرنا أن نحبو على الركب والأيدى إلى أن نقترب من السلطان ثم نقف راكعين على ركبنا ورءوسنا منكسة إلى الأرض نمهد الأرض بأيدينا يميناً وشمالاً ونقول « أطال الله بقاءك وسترك ونصرك على أعدائك ولا أراك سوءاً ولا مكروهاً أبد الدهر »، ثم بدأ العلماء بالحديث واستعملوا كلمة « حاكوره » التى علمت مؤخراً أنها تعنى قطعة أرض وبعد الفراغ من الحديث رفع العلماء ورقة للسلطان ختمها من أعلى رجل من خاصة السلطان يطلقون عليه « أبو شيخ » وهو كبير الخصيان بختم مستدير كبير نقش عليه اسم السلطان وألقابه وتاريخ ملكه وبعدها انصرف العلماء وأعلن الوزير قرب صلاة الجمعة فخرج السلطان وقمنا واقفين بعد أن خدرت ركبنا من الركوع الطويل .

موكب الصلاة ـــ الفرسان على خيولهم قد اجتمعوا عند باب السلطان فوقفوا صفوفاً على جانب الطريق وأمامهم المشاة يحملون العصى الغليظة وبدأت « الأمباية » ترفع صوتها إعلاناً للعسكر بأن السلطان قد ركب من باب التيرمة . ها هو ذا السلطان بدأ يقترب وهو على صهوة جواد عليه سرج مزركش ولجام وزينات تتدلى عل جانبيه كأنه عروس فى يوم الزفاف ومشى أمام السلطان العساكر بأسلحتهم النارية ومن ورائه الخصيان راكبين الخيول وبينه وبينهم بعض الجياد يقودها السياس صفاً واحداً وعن جانبي السلطان يسير نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظلله وتظلل جواده وهى مصنوعة من نسيج متين مطرز بالقصب ومبطن بقماش مختلف الألوان كل شقه بلون تتدلى من أطرافها شراريب قصب ولها يد طويلة من خشب متين مغطاة بنسيج ملون كل شبر بلون .

انظر إلى الفرسان وهم يهزون سيوفهم فوق رءوسهم تحية للسلطان وهو يرد عليهم تحيتهم بابتسامة عريضة ويهز منديله الحريرى الفاخر .

الملك يصل إلى المسجد فينزل من فرسه ويدخل فى غرفة خاصة عند باب المسجد ليخلع ثياب الملك ويلبس ثياب صلاة الجمعة وهى جبة بيضاء وعمامة بيضاء فوق مكاوية من الحرير يغطيها ثوب من الشاش الأبيض الرقيق على هيئة الخطيب ثم يقف للصلاة فى غرفة خاصة به لها نافذة تشرف على الإمام

والبخور والعطور تعبق الجو وتملأ المكان فينظر المصلون إلى بعضهم وعلى شفاههم ابتسامات وعلى ألسنتهم دعوات للسلطان المعظم أمير المؤمنين .

تنتهى الصلاة ويلبس من جديد ويعود بالموكب نفسه إلى بيته . دعنا ننصرف الآن موعدنا غدا فى موكب آخر .

فى محكمة الفاشر

المحكمة — بعد أن انتظم عقد القضاة قدم الأكل والشراب للجميع ثم رفعت الموائد وإذا بصوت من الخارج يقول « أيها الحاضرون إن مولانا السلطان فى طريقه إليكم » ثم يدخل السلطان وهو فى ثياب الملك ومعه رجل يقال له « خشم الكلام » فيقف الناس إجلالاً واحتراماً للسلطان ويقف السلطان فيطوف به سبعة من العلماء يحمل كل منهم مصحفاً شريفاً سبع مرات ثم يجلس السلطان ويأذن للناس بالجلوس فيجلس الجميع ثم يبدأ أحد العلماء فى تلاوة آيات من الكتاب الكريم وبعد الانتهاء بصدق الله العظيم يرفع العالم كفيه ويرفع السلطان كفيه وكذلك جميع الحاضرين ويقرأ الجميع الفاتحة ثم يأخذ العالم فى الدعاء للسلطان بقوله أطال الله بقاءك وسترك ونصرك على أعدائك ولا أراك سوءاً ولا مكروهاً أبد الدهر ويؤمن الحاضرون بما فيهم السلطان على الدعاء ثم يخاطب « خشم الكلام » الحاضرين بقوله « سيدنا يسلميكم » أى أن مولانا السلطان يقرؤكم السلام فيحييه الحاضرون

بقولهم « الله يسلمه » — الله يحفظه — الله ينصره . ثم يخاطب خشم الكلام المتقاضين الذين يجلسون فى حجرة مقابلة للحجرة التى نحن فيها ويسألهم عن قضاياهم ثم يبلغها السلطان فيأمر السلطان القضاة بالنظر والفصل فيها على النظام الشرعى وتبدأ الجلسة برئاسة أعلمهم الذى يباشر التحقيق فى القضايا ويشاور أصحابه كما كان يشترك باقى الحضور بلفت نظر الرئيس أو الإدلاء برأى . وكان القضاة يعقدون جلساتهم الخاصة فى حجرة أخرى جالسين على الأرض كل على فروته الممتازة ويجلس الخصوم على الأرض كجلسة المصلى تأدباً للمحكمة وينظر كل منهم إلى الأرض ولا يرفع رأسه إلا إذا طلب إليه الكلام ويسوى رئيس الجلسة بين الخصوم فى الجلوس والإقبال والإشارة والنظر لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير وكبير وصغير وكان يحيط بالقضاة جماعة من الرجال عرفوا إذ ذاك بالفلاقنه وهم المسمون بالحجاب لم تكن لهذه المحكمة محاضر بل يسمع القاضى أقوال الخصوم وشهادة الشهود من غير كتابة وكان القضاء يجرى على مذهب الإمام مالك الذى يتفقه فيه العلماء قبل توليهم هذا المنصب فى الأزهر الشريف الذى لهم فيه رواق معروف برواق دارفور .

إلى هنا ترفع الجلسة وينصرف القضاة دون النطق بالحكم الذى لا بد أن يوافق عليه السلطان إن كان فى القضايا الكبرى ويمكن إعلان المتخاصمين رأساً إن كانت القضية فى المسائل الصغرى هذا وقد علمت أن للمتخاصمين مطلق الحرية فى

اللجوء إلى القضاء الشرعى أو العرفى الذى كان يحكم فيه وفق قانون يسمى دالى وشرط اللجوء إليه أن يقبل المتخاصمان سلفاً الالتزام بقبول الحكم الذى كان يصدره فى هذه الحالة أبو شيخ كبير الحصيان الذى يعد مرجعاً فى هذا القانون .

صرة الحرمين

القافلة تستعد للسفر عن طريق الأربعين إلى مصر مع المحمل الشريف الذاهب للحرمين الشريفين كما هى العادة فى كل عام هدية من أمير المؤمنين سلطان دارفور وها هى ذى الهدايا من سن الفيل وريش النعام والصمغ وغيره قد امتلأ بها المكان وها هى ذى أصوات الجمال وهى تحمل بدأت تبشر بقرب الرحيل مع (الصرة) إلى مصر .

الفاشر فى فرحة وفى عيد فهذا اليوم هو من أكبر أعيادها ولا يدانيه عيد إلا يوم تجليد النحاس الذى غنمه الفور من مشيخة العابدلاب ، واليوم تخرج العاصمة عن بكرة أبيها بخيلها ورجالها نساءاً ورجالاً شيباً وشباباً وعلى رأسهم السلطان لتوديع « الصرة » كما كانوا يسمونها لأن تلك الهدايا كانت عند وصولها إلى مصر تباع ويحصل ثمنها فى صرة مع كساء الكعبة المشرفة الذى كانت تبعث به مصر فى كل عام للحرمين الشريفين .

ياله من مشهد بديع رائع امتزجت فيه أصوات المديح بقراءة القرآن واختلط كل هذا بدقات النحاس والإمباية مع

طلقات الرصاص وقد بدأ الفرسان الاستعراض على خيولهم وجمالهم وحتى الأطفال بدأوا يتسابقون على ظهور الحمير والأبقار إنه يوم لا ينسى ولكن القافلة بدأت تتحرك وتجد السير فى طريقها.

الحركة الفكرية فى دارفور

كان الفور ولا يزالون من أكثر سكان السودان حماساً لدينهم وكانوا فى تاريخهم الطويل أصاب المسلمين عوداً أمام هجمات الغزاة وضربات الفاتحين ولم تلن قناتهم قط أو تفتر عزائمهم أبداً بل كانوا دائماً رجال صبر وجهاد فى دين الله ودفاع عن حياض الوطن وكانوا قلعة حصينة ترفرف عليها رأية الإسلام، وإنه من تقرير الحقيقة أن نذكر هنا أن دارفور كانت دائماً أول من يثور على الظلم والطغيان وآخر من يستسلم لجيوش الفاتحين ويصدق ذلك فى جميع العهود دون استثناء ولكن لا بد لهذا من سبب — كل ذلك كان بفضل القيادة الرشيدة والتوجيه المخلص الذى كان يبذله علماء دارفور من خريجى الأزهر بمصر وانتشار الوعى الدينى بين طبقات العامة ولا عجب فى ذلك فإن دارفور كانت من أقرب الممالك صلة بإقليم وداى حول بحيرة شاد الذى كان مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية فى أفريقيا بعد خروج العرب من الأندلس وعن نفس هذا الطريق دخلت القبائل العربية الحاكمة دارفور ودخل المذهب المالكى وبعض قراءات القرآن المشهورة ، كما كانت مصر الجارة الإسلامية من

جهة الشمال تفتح صدرها لجيوش الطلاب من الفور وقد أفرد لهم رواق خاص بهم فى الأزهر أطلق عليه رواق الفور وكان ملوك مصر يحترمون سلاطين الفور ويهادونهم وذلك بعد أن عرفوا فيهم الصلابة والتمسك بأهداب الدين وقد كان للسلطان محمد الفضل مع محمد على باشا رأس الأسرة المالكة فى مصر والذى أرسل ابنه إسماعيل باشا لفتح السودان جولات تبودلت فيها الرسائل وجيشت لها الجيوش .

هذا وكانت دارفور غنية برجالها قوية بدينها فانتشرت الخلاوى لتدريس القرآن الذى كان يحفظه أغلب رجال الفور كما بنيت المساجد الضخمة وجلس فيها علماء المغرب ومصر وخريجو الأزهر من أهل البلاد لتدريس العلوم الدينية والعربية ونشر الثقافة الإسلامية وكان سلاطين الفور يهتمون بتربية أبنائهم فيحضرون علماء أجلاء لتدريسهم وتربيتهم التربية الدينية الخالصة وتنشئتهم على دراسة أخبار العرب وتاريخ الإسلام وكانوا يجلبون العلماء من سنار عاصمة مملكة الفونج ويرغبونهم فى الهجرة إليهم وعلى العموم فإن الفاشر عاصمة السلطنة وإن لم تتهيأ لها الظروف لأن تكون عاصمة السودان الموحد كما كان الحال مع سنار فإنها بحق كانت عاصمة السودان المسلم دون منازع ومركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية وأختاً صغرى من أخوات سنار العظيمة وإن تاريخها المجيد جدير بأن يأخذ مكانه اللائق فى تاريخ عواصم الإسلام تماماً كالقاهرة وبغداد وسنار .

قائمة ملوك الفور

١ ــ السلطان سليمان سولونج الأول
٢ ــ » عمر
٣ ــ » عبد الرحمن
٤ ــ » محمود
٥ ــ » محمد صول
٦ ــ » دليل
٧ ــ » شرف
٨ ــ » أحمد
٩ ــ » إدريس
١٠ــ » صالح
١١ــ » منصور
١٢ــ » شوش
١٣ــ » ناصر
١٤ــ » قوم
١٥ــ » كورة

١٦ــ السلطان سليمان الثانى

١٧ ــ « موسى

١٨ ــ « أحمد بكر

١٩ ــ « محمد كورة

٢٠ ــ « عمر الثانى

٢١ ــ « أبو القاسم

٢٢ ــ « تيراب

٢٣ ــ « عبد الرحمن

٢٤ ــ « محمد الفضل

٢٥ ــ « محمد حسين

٢٦ ــ « إبراهيم (قتله الزبير باشا فى واقعة منواشى فى ٢٤ أكتوبر ١٨٧٥ م .

٢٧ ــ « على دينار (وقد جاء للملك بعد انهزام جيش الأنصار فى واقعة كررى ١٨٩٨ واستمر إلى أن قتله الإنجليز فى عام ١٩١٦ م وأضافوا دارفور إلى بقية أجزاء السودان المختلفة .

مملكة يرنو

عند ما أعلن العباسيون خلافتهم رسمياً فى عام ٧٥٠ م كان همهم القضاء على بنى أمية نهائياً حتى يأمنوا شرهم فهرب كل أفراد البيت الأموى ممن نجا من القتل وهرب معهم أتباعهم والموالون لهم ومن أولئك الذين استطاعوا النجاة عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام عاشر الخلفاء الأمويين .

دخل عبد الرحمن فلسطين متستراً ثم انتقل إلى شمال أفريقيا واحتمى بأخواله من البربر وأخذ ينتقل إلى أن وصل مدينة سبته حيث أعد العدة وجمع الرجال للاستيلاء على شبه جزيرة أسبانيا « الأندلس » التى فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير فى أيام الدولة الأموية وأخذها العباسيون بعد سقوط دولتهم .

استولى عبد الرحمن على قرطبة عاصمة الأندلس عام ٧٥٦م بعد هزيمة الحاكم العباسى وأسس ملكاً عربياً إسلامياً دام أربعة قرون أو يزيد ازدهرت فيها العلوم والمعارف فى جميع الميادين وظهر العلماء والفلاسفة ممن سجل لهم التاريخ صفحات خالدات ، غير أن عوامل الضعف أخذت تدب فى الأندلس فى القرن الحادى عشر الميلادى نتيجة للحروب التى كان يشنها حكام الأندلس المسلمون والذين يعرفون فى التاريخ فى تلك الحقبة بملوك الطوائف ضد بعضهم البعض حتى أغار عليهم أهل البلاد من

أسبان الشمال المسيحيين وانتهت دولتهم نهائيًّا باستسلام أبى عبد الله ملك غرناطة سنة ١١٩٢ م .

وتفرق العرب مرة أخرى فى البلاد فهرب منهم من هرب إلى شمال أفريقيا وتوغل بعضهم جنوباً حتى وصلوا منطقة بحيرة شاد وجعلوا منها منطقة تجمع ضخمة كانت ملجأ للكثيرين ممن يطلبون السلامة وقامت هنالك ممالك إسلامية على نهر النيجر واشتهرت تمبكتو كمركز للدراسات الإسلامية يقصده الطلاب من أصقاع بعيدة ومن أشهر ممالك تلك الحقبة فى هذه المنطقة مملكة كانم أو مملكة برنو كما عرفت بذلك مؤخراً وإليك نبذة عنها فيما يلى :

مملكة برنو

كانت منطقة بحيرة شاد فى الجنوب الغربى للسودان منطقة تجمع ضخمة للثقافة الإسلامية حيث التقت فيها القبائل الهاربة من وجه العدوان الإفرنجى فى الأندلس والغارات البربرية فى شمال أفريقيا بالإضافة إلى هجرة بعض القبائل الأخرى البدوية التى دخلت السودان عن طريق مصر — دنقلا — دارفور .

فى تلك المنطقة قامت فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى مملكة إسلامية عرفت فى التاريخ بمملكة كانم امتد نفوذها إلى وادى النيل ما بين بلاد النوبة وحدود مصر . وحوالى أيام فتح دنقلا وقبل قيام سلطنة الفونج انتقلت العاصمة لهذه الدولة إلى

منطقة برنو وأصبحت منذ ذلك الوقت تعرف بمملكة برنو .

هذه الدولة الفتية كانت قبلة المسلمين من جهات كثيرة ومن بينها السودان وقد انتشر المبشرون منهم ، توغلوا فى السهول والوديان والغابات يدعون لدين الله ويفتحون الطريق للحضارة والمدنية ويعلمون الناس اللغة العربية التى ما لبثت أن عمت جميع أنحاء الجنوب وأصبحت لغة التفاهم بين جميع القبائل .

جبال النوبة

مملكة تقلى — أهل جبال تقلى من النوبة وكانت بلادهم قلعة حصينة يلجأ إليها كل من كانت تحدثه نفسه للوقوف فى وجه الإسلام فى تلك الجهات إلى أن هاجر إلى تقلى رجل زاهد من الجعليين الجموعية وأسسس دولة إسلامية فى عام ١٥٣٠ م امتدت من تلودى فى الجنوب إلى أبى حبل فى الشمال وبعد وفاته أعقبه على الملك ابنه جيلى أبو جريدة وكانت أمه من النوبة ثم ورث العرش من بعده تسعة عشر من أحفاده وقد هاجر إلى تقلى بعض القبائل العربية منها البديرية والجرامعة وبطون من كنانة والكواهلة واستوطنوا هنالك فنشروا الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية باللغة العربية بين سكان تلك الجهات .

العهد التركى
فى ظل الخلافة العثمانية

موطن الأتراك الأصلى أواسط آسيا وأول صلة لهم بالإسلام كانت أيام الأمويين حيث غزا القائد قتيبة بن مسلم بلاد ما وراء نهر جيحون فى عام ٧٠٥ م ومنذ ذلك الوقت قامت دويلات من المهاجرين الأتراك الذين جاءوا من موطنهم الأصلى من أواسط آسيا ثم تكاثر عددهم أيام الدولة العباسية خصوصاً فى أيام المعتصم وفى أواخر العهد العباسى كان المتسلطون فى الدولة نوعاً من الترك يعرف ببنى سلجوق وهؤلاء كانت لهم حروب مع الدولة الرومانية فى آسيا الصغرى واستقر بعض هؤلاء السلاجقة هنالك وأسسوا دويلات صغيرة مستقلة عن حكومة بغداد وقام من بين حكام تلك الدويلات رجل اسمه أرطغول أنجب ولداً سماه عثمان أصبح زعيماً للأتراك وينتسب إليه فيقال عنهم الأتراك العثمانيون وفتح فيما بعد أحد ملوكهم واسمه محمد الفاتح فى سنة ١٤٥٣ م مدينة القسطنطينية العظيمة التى كانت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ومقر الكنيسة الشرقية .

استطاع العثمانيون بعد فترة من فتح القسطنطينية أن يستولوا على بلاد اليونان وجزءاً من أوربا وجزر البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا مثل ليبيا ومراكش وتونس والجزائر كما فتح أحد ملوكهم واسمه سليم الفاتح مصر وأخذها من يد المماليك عام ١٥١٧ م وأضافها إلى عرش آل عثمان وأصبحت القسطنطينية

عاصمة الخلافة الإسلامية بعد القاهرة .

محمد على باشا والسودان ــ أصله تركى من ولاية تركية فى بلاد اليونان اسمها ألبانيا . جاء إلى مصر محارباً فى الجيش التركى وأصبح يترقى إلى أن انتصر على منافسيه من الأتراك ونال تأييد المصريين فاعترف به الخليفة العثمانى فى تركيا والياً على مصر وذلك بمكتوب مؤرخ فى ٩ يونيو سنة ١٨٠٥ م . وبذلك تأسس بيت استقل بحكم مصر عن الخلافة التركية العثمانية وأصبح يعرف فيما بعد بالأسرة العلوية نسبة إلى محمد على التى استمر حكمها من عام ١٨٠٥ إلى سنة ١٩٥٢ م حيث طرد الثوار الأحرار من المصريين « فاروق » آخر ملوك أسرة محمد على باشا من الأتراك .

فكر محمد على باشا بعد أن استغل بحكم مصر من الأتراك العثمانيين وبعد أن فتح الشام والحجاز فكر أن يوسع رقعة ملكه جنوباً كما هو شأن كل الحكام الذين تولوا حكم مصر ومما أغراه على ذلك سماعه بوجود معدن الذهب بالسودان، هذا زيادة على رغبته الشديدة فى الحصول على محاربين شجعان من السودانيين يقوى بهم جيشه بالإضافة إلى عزمه القضاء على المماليك « حكام مصر قبل تولية محمد على باسم خليفة تركيا » الذين هربوا خوفاً منه ودخلوا بلاد النوبة .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت القائد الألبانى محمد على يفكر فى فتح السودان .

غير أن محمد على كان يعلم جيداً شجاعة السودانيين وتمسكهم بدينهم واستعدادهم للموت فى سبيل نصرته ولا إخاله قد نسى الخطاب الذى أرسله عمارة دنقس إلى السلطان سليم الفاتح وإن كان قد نسى ذلك فإن خطاب سلطان دارفور السلطان محمد الفضل له هو شخصياً سيجعله يفكر كثيراً قبل أن يقدم على هذه المجازفة غير المضمونة خصوصاً وأنه قد فرغ من مجازفة أخرى فى جزيرة العرب فى حرب الوهابيين — وإليك نص الخطاب الذى ورد كرد على خطاب من محمد على باشا كان يطلب فيه من سلطان دارفور التسليم .

نص الخطاب

(الحمد لله الذى حكم بين عباده بالحق قطعاً سبحانه يجزى كل نفس بما تسعى وإليه المعاد والرجعى وهو حسبى وكفى — من حضرة من أمن الله به البلاد وجعل ملكه مسموعاً من كل أحد وصيره فى قلوب الأعداء ناراً تستعر وجمراً يتوقد وجعل الله على يده ضرب من طغى وتمرد ومن ضل وتعند وهو شاب صغير السن ولو صار كهلاً لخضعت له الإنس والجن وقد اشتهر بالكرم والجود وحال بعوارضه أنجم السعود وإن قامت الهيجاء بنفسه يجود ويصل إلى الأعداء بقواطع الهنود وينتصر بعون الله على كل موجود هو مولانا السلطان محمد الفضل ابن عبد الرحمن الرشيد أعزه الله .

(إلى حضرة الكوكب العالى والنير المتلالى بهجة الأنام وقدوة الليالى صاحب العز والافتخار أخينا العزيز محمد على باشا سلمكم الله تعالى من المحذورات واستعملكم بالباقيات الصالحات بمنه وكرمه — أما بعد فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته لديكم قد وصلنا جوابكم أوصلكم الله إلى رضوانه وفهمنا خطابكم ومقتضى جوابكم وكل كلمة من المرقوم يستحق جوابها المفهوم ولكن يكفى من ذلك كله كلام الحى القيوم حيث قال — « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » . . . « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » . . . إنكم طالبون دولتنا وطاعتنا وانقيادنا لكم هل بلغكم أننا كفار وجب لكم قتالنا وأبيح ضرب الجزية علينا أو غركم قتالكم مع ملوك سنار والشايقية فنحن السلاطين وهم الرعية . أورد لك دليل من الله نجد فيه ملكك؟! أم ورد لك حديث من رسول الله تجد فيه تمليكك؟! أم خطر لك خاطر من عقلك بأن لك رباً قوياً ولنا رب ضعيف؟! الحمد لله نحن مسلمون وما نحن كافرون ولا مبتدعون ندين بكتاب الله وسنة رسول الله (صلعم) ونؤدى الفرائض ونترك المحرمات ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر والذى لم يصل نأمره بالصلاة والذى لم يزك نأخذ منه الزكاة ونضعها فى بيت المال ولا ندخرها ونرد الأمانات إلى أهلها ونعطى كل ذى حق حقه حتى واتت

لنا القبائل العظام ومن أتى دولتنا يرجع مكرماً بإذن الله تعالى ولو اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، ألم تر إلى قوله (صلعم) لو بغى جبل على جبل لدك الباغى أما علمت أن دارفور محروسة محمية بسيوف قطع هندية وخيول جرد أدهمية وعليها كهول وشبان يسرعون إلى الهيجاء بكرة وعشياً ؟ أما علمت أن عندنا العباد والزهاد والأقطاب والأولياء الصالحين من ظهرت لهم الكرامات فى وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم فتصير رماداً ويرجع إلى أهله ويكفى من بعد ذلك والله يكفى شر الظالمين) كتبه الفقيه محمد ود عمارى من متخرجى الأزهر الشريف .

سقوط سنار :

أرسل محمد على باشا ابنه إسماعيل لفتح شمال السودان وإخضاع مملكة سنار كما أرسل صهره محمد الدفتردار لفتح كردفان ودارفور ولكنه لم ينس أنه مقبل على حرب بلاد مسلمة تدين بدين الله الحنيف وتقيم الشريعة الإسلامية سمحة فأرسل مع الجيش وفداً من علماء المسلمين الفطاحل من الأزهر الشريف ليقنعوا الناس بالحجة للدخول فى طاعة أمير المؤمنين دون قتال وكان منهم القاضى محمد الأسيوطى الحنفى والسيد أحمد البقلى الشافعى والشيخ السلاوى المغربى المالكى .

لم يكن الفتح سهلاً ميسراً بالرغم من تفكك المشيخات العربية فى شمال السودان وتناحرها بالإضافة إلى ضعف مملكة سنار نفسها من جراء استيلاء الوزراء من الهمج على ناصية الملك

وانصراف الملوك من الفونج إلى اللهو والعبث — كانت للشايقية وقفات خالدة فى كورتى وحنك وكجبى تحت قيادة ملوك الشايقية الثلاث صبير وجاويش وعمر ولن ينسى التاريخ الأميرة مهيرة بنت الشيخ عبود شيخ السواراب وهى على بعيرها تتقدم الرجال فى كورتى وتحثهم على القتال وتقول الشعر .

ثم وصل الجيش الفاتح بلاد الجعليين ولم يحسن إسماعيل باشا لقاء ملوكهم وكان شابًا حدث السن طائشاً لا يحسن معاملة الناس فأوغر ذلك صدور الجعليين وأضمروا له شرًا كانت نتيجته واقعة الملك نمر المشهورة وأنك لا شك تعلم باقى القصة .

وتقدم الجيش ودخل سنار دون حرب وكان ذلك فى يوم ١٢ يونيو سنة ١٨٢١ م وبذلك انقطع ذلك التاريخ المجيد الطويل الحافل وهوت عاصمة الفونج العتيده وأخذت سنار مكانها فى سجل التاريخ مع رصيفاتها بقية العواصم الإسلامية كالمدينة المنورة وبغداد ودمشق والقاهرة تحت ظل الخلافة العثمانية وبقيت الفاشر العاصمة الإسلامية الثانية فى السودان وحدها فى الميدان تدافع من أجل استقلالها وحريتها .

سقوط دارفور

تم للدفتردار بعد مواقع دموية شهدتها سهول كردفان ووديانها فتح الأبيض والاستيلاء على كردفان التى كانت تابعة لسلاطين الفور أما دارفور نفسها فقد صمدت فى وجه الفاتحين وقست عليهم وأذاقتهم ألواناً من العذاب لم يشهدوا مثله من قبل حتى يئسوا من فتحها وانصرفوا إلى تنظيم إدارة البلاد التى تم استيلاؤهم عليها غير أن القدر تدخل وظهر على المسرح الحوادث بطل عظيم من أبطال السودان وذلك هو الزبير باشا وسنفرد له باباً خاصاً لأهمية الدور الذى لعبه فى تاريخنا الإسلامى المجيد .

بعد مناوشات طويلة ورسائل عديدة بين السلطان إبراهيم سلطان دارفور والزبير باشا ملك بحر الغزال احتل الزبير بجيشه شكا ثم داره وأخضع قبائل الرزيقات وبنى حصناً منيعاً جعله مركزاً لهجومه على دارفور ثم دارت بينهما معارك طاحنة خر فيها السلطان إبراهيم صريعاً وهو يحارب ببسالة نادرة وقد نزل عن جواده لما توقفت نيران المدافع واشتبك الفرسان من الجانبين بالسلاح الأبيض وكان ذلك فى واقعة منواشى فى صبيحة يوم الأحد الموافق ٢١ أكتوبر من عام ١٨٧٤ م ثم بعدها زحف الزبير على الفاشر ودخلها دخول الفاتحين يوم ٣ نوفبر من نفس العام وأعلن بعد دخوله إضافتها للخلافة العثمانية .



الزبير باشا

بقيت دارفور مدة عشر سنوات فقط فى ظل الخلافة العثمانية قضتها كلها فى حروب وفتن وثورة على الغاصبين وعادت مرة أخرى تحمل راية الإسلام المستقل عن حكومة الترك يوم أن سلم حاكمها الألبانى سلاطين باشا إلى جيوش المهدية واعتنق دين الإسلام .

مملكة بحر الغزال

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفى أيام الحكم التركى على وجه التحديد (التركية السابقة) كانت تجارة السن وريش النعام من أروج السلع فى أسواق مصر والشرق مما شجع كثيراً من المغامرين من تجار مصر والسودان على التوغل فى غابات الجنوب طلباً لصيد النعام والأفيال والجواميس والخرتيت ، فكانوا يذهبون فى جماعات مسلحة بالبنادق ومدربة على ركوب الخيل وصيد الحيوانات المفترسة وكان لكل تاجر (زريبة) من الشوك تعرف باسمه يجمع فيها بضاعته ويقيم حصونه للدفاع عن نفسه ورجاله وماله .

مع أحد هؤلاء التجار المصريين كان يعمل شاب من الجعليين الجموعاب مديد القامة قوى البنية أسمر اللون عربى الملامح حسن الطلعة خفيف الشاربين واللحية حاد الصوت فصيح اللهجة زكى الفؤاد عالى الهمة أبى النفس كريم الطبع

قريب إلى الخير بعيد عن الشر محب للعلم غيور على الإسلام والمسلمين قوى الإرادة ذلكم هو الزبير رحمه العباسى ملك بحر الغزال المقبل — وفى إحدى تلك الزرائب التابعة لأبى عمورى فى منطقة بحر الغزال فى عام ١٨٥٧ كان القدر يعد بطلاً عظيماً أصبح فيما بعد ملكاً من ملوك السودان المسلمين تعمل له مصر وبريطانيا ألف حساب وتضعه أفريقيا المستيقظة فى القمة من بين أبطالها الذين وقفوا فى وجه الاستعمار فى ذلك العهد .

الزبير التاجر — فى تلك السنة أى عام ١٨٥٧ م ثارت بعض قبائل الجنوب على التجار المسلمين وهاجمت زرائبهم وكادوا يفنون عن آخرهم لولا شجاعة الزبير النادرة التى أنقذت حياتهم ولما سمع بذلك التجار العرب فى جميع تلك الجهات هاجروا إليه وبدأوا يجتمعون حوله ويطلبون منه الحماية والعون فاشتهر أمره وراجت تجارته ونشطت بين بحر الغزال والخرطوم عن طريق دارفور — الأبيض — الخرطوم .

بدأ الزبير يتجول بين قبائل الجنوب فى بلاد الجانقى والجور والبنقو وقولو والنيام نيام وتزوج ببنات ملوكهم وعلا مقامه عندهم وكون له جيشاً قوياً كان يجمعه من الجنود المرتزقة ومن الذين كانوا يفتديهم بماله من ملوكهم وسلاطينهم الذين كانوا يحكمون عليهم بالقتل — كان الزبير محبوباً بين الجنوبيين لما لمسوه فيه من شجاعة وكرم وحسن معاملة رغم الدسائس التى تحاك ضده

فى الظلام خوفاً من قوته العظيمة وخطرها على سلاطين القبائل وقد لاقى فى ذلك أهوالاً عظيمة خرج منها جميعاً ظافراً وعلى شفتيه ابتسامة المسلم البطل المؤمن برسالته الواثق بنفسه .

دارت الأيام دورتها وإذا بالزبير يعود فى ٣٧ مايو سنة ١٨٦٥ م إلى بلاد قولو فى بحر الغزال بعد عراك عنيف مع قبائل النيام نيام التى ظلت تلاحقه فى كل مكان ظناً منها أن الزبير يطمع فى تولى السلطنة فيها ولما سمع سلطان قولو بمقدم الزبير ظن أنه جاء يطلب ثأر أخيه منصور الذى قتله ملك قولو وبعد أن فشل الزبير بشتى الطرق فى إقناع هذا الملك بحسن نواياه صمم على حربه وانتصر عليه فى عدة وقائع أعلن نفسه بعدها ملكاً على بحر الغزال وبحر العرب واتخذ من « باية » عاصمة قولو مقراً لمملكته وسميت فيما بعد بديم زبير .

بدأ الزبير يحكم مملكته الجديدة بالسنة والكتاب وكان له من ثقافته الإسلامية خير عون فى ذلك فهو قد حفظ القرآن فى أيام طفولته فى مكتب من مكاتب الخرطوم وتفقه فى مذهب الإمام مالك وهذا هو ما حدا به ليكون مجلساً من العلماء من اثنى عشر قاضياً هو مجلس شوراه وقد أخذ عليهم عهداً على المصحف الشريف أن يمنحوه النصح وأن يردوه عن أى عمل لا يرونه يطابق السنة والكتاب .

هذا هو الزبير العظيم لم يكن نخاساً ولم يكن طاغية بل كان

حاكماً مسلماً عربياً وعيبه أنه كان قوياً شجاعاً مغامراً فى زمن بدأت تتحرك فيه مطامع الاستعماريين الغربيين وتتسلل فى ظلامه طلائع التبشير المسيحى . إن الزبير يمثل رأس الحربة العربية المسلمية التى انطلقت من دنقلا فى يوم ٩ يونيو من عام ١٣١٨ ميلادية وإنه امتداد ضخم للحروب الصليبية والجهاد المقدس فى أيام صلاح الدين الأيوبى .

وبعد أن تم له ما أراد من تأمين البلاد ووضع نظام ثابت للإدارة فيها بدأ الزبير فى فتح الطريق التجارى البرى للخرطوم عبر أرض الرزيقات مما اضطره إلى فتح بلادهم للاستيلاء عليها ثم فتح دارفور كما رأينا وقد منحه خديو مصر لقب الباشوية لقاء هذا الفتح العظيم ثم اتجه بجيشه نحو السودان الفرنسى وطلب من ملك وادى التسليم غير أنه رجع قبل أن يتم ذلك بناء على طلب من خديو مصر .

الزبير فى مصر — كان الزبير يعتز بعروبته وإسلامه وبلغ فى ذلك مبلغاً عظيماً فهو يتصل بنسبه إلى العباس عم رسول الله (صلعم) ولا يرضى إلا إذا قرن اسمه به وقد اشتهر بالزبير ود رحمه العباسى هذا الاعتزاز بالعروبة والإسلام كان من أقوى الأسباب التى جعلت الزبير يضع جميع انتصاراته فى الجنوب والغرب فى يد خديو مصر تحت راية الخلافة الإسلامية غير أن هنالك خلافاً قد وقع بينه وبين إسماعيل باشا أيوب

حكمدار السودان استغله الاستعماريون من الإفرنج مما اضطره إلى أن يذهب بنفسه لمصر لمقابلة الخديو وترك على مملكته فى بحر الغزال ابنه سليمان فى شلة من رجاله المخلصين ومن بينهم رابح الزبير .

أخذ الزبير يستعد للسفر فتزينت له العواصم وأطلقت له المدافع واستقبلته الخرطوم استقبال الأبطال الفاتحين ومنها تحرك إلى دنقلا فمصر وفى ركابه ألف فارس بكامل أسلحتهم ومعه من الهدايا مائة حصان من أجود خيول السودان وأربعة أسود وأربعة نمور وست عشرة ببغاء وكمية من سن الفيل قدمها للخديو إسماعيل باشا وقد قالت الشاعرة الحاجة بنت مسيمسى فى ذلك :

فى الخرطوم أدلى بالبـــابور
وفى بربر رسا بالقهوة غفره يدور

جابوا له الجمال اتوجه العتمـــور
حلق الريف نزل قال لمصر دستور

فى بلد النصارى كم سحت بالبابور
كل صبحاً جديداً راكب على الخنطور

من قومة الجهل أنت المن قديم منصور
إدوك الأمان خايفين عليك الجـــور

فى السودان قبيل ما يشبهوك الناس
ويا جبل الذهب الصافى الماك نحاس

يا رود النصارى من قمزة الكباس
خليت المجوس ألـين من القرطاس

عده عصره زين فى ديار الناس
وفى ديار الغروب سويت للرجالة أساس

كم قتل السلاطين خليت دياره يباس
ود رحمه الزبير تامى الرجاله خلاص

وقد قابلهم عند وصولهم مصر الخديو إسماعيل باشا مقابلة طيبه وأنزله هو وعائلته فى قصر فخم بالعباسية وبعد المداولات والمشاورات أذن له الخديو بالعودة للسودان إلا أن أيادى الاستعمار الأوربية القذرة تدخلت من وراء ستار وأوقعت بينه وبين الخديو فأمره بالبقاء فى مصر ثم أرسله عام ١٨٧٧ م فى حرب ضد الروس الذين بدأوا يهاجمون الدولة العثمانية ثم عاد منها إلى مصر وظل فيها إلى أن قامت الثورة المهدية فوشى به غردون عند الخديو واتهمه بالتآمر مع المهدى فأمر الخديو باعتقاله ونفيه إلى جبل طارق وبقى هنالك لمدة ثلاثين شهراً بعدها ثبتت براءته وعاد إلى مصر مرة أخرى .

أما سليمان الزبير ورفاقه الذين خلفهم الزبير فى بحر الغزال

فقد وقفوا فى وجه المؤامرات الاستعمارية يرفعون راية العروبة والإسلام ومن حولهم غردون الإنجليزى وجسى الإيطالى يدبرون الخطط لوقف التيار العربى المسلم ويثيرون الرأى العام فى بريطانيا بحجة إبطال تجارة الرقيق فأبعدوا الزبير وظلوا يطاردون سليمان ابنه إلى أن أقنعوه أخيراً بالتسليم بعد أن ضغطوا على أبيه فى مصر بأن يكتب له بذلك خطاباً وتعهدوا له بإعطائه الأمان ولكنهم غدروا به هو ورجاله بعد أن سلموا أنفسهم فى صباح يوم ١٤ يوليو ١٨٧٩ م لجسى الإيطالى الذى أمر برميهم بالرصاص بعد أن أوثقهم بالحبال وهم يشربون القهوة فى ضيافته فخر سليمان ومعه سبعمائة من فرسانه شهداء يؤدون ضريبة الفداء ويقدمون قرابين التضحية . وينيرون الطريق أمام ركب المسلمين فى الأجيال القادمة .

السلطان رابح الزبير

لم يكن رابح مقتنعاً بحسن نوايا غردون ورجاله وكان قليل الثقة بما يسمى بالضمير الأوربى فهو منذ أن عرفهم خونة لا يقيمون للشرف وزناً فرفض التسليم وخرج فى ألف فارس من رجاله وجد السير نحو بحيرة شاد ومنطقة وادى حيث رجع قائده العظيم الزبير باشا بأمر من خديو مصر وكأنه أراد بذلك أن ينفذ رغبة قائده العظيم وقد تم له ما أراد .

وحدث أن اندلعت الثورة المهدية وعظم أمرها فى تلك الأيام وفكر الثائر العظيم وخليفته الداهية فى تجنيد جميع الكفايات والاستفادة من كل الإمكانيات فأرسلا إلى رابح الخطابات يعرضان عليه فيها الانضمام إلى حركة المهدية لحرب الترك الذين أسروا الزبير وقتلوا ابنه سليمان ورفاقه وشردوه هو عن وطنه . وقد كرر له الخليفة الخطابات وأبلغه تفاصيل الانتصارات التى أحرزها المجاهدون مثل قتل هكس وفتح الخرطوم وطرد الترك والإنجليز وسمى له كثيراً من الفرسان الذين يعرفهم وعين له مكانتهم العظيمة فى الدولة الجديدة .

ولكن رابحاً كان سيئ الظن بالأحوال فى السودان فى تلك الفترة .

وهنالك فى (دكوه) فى جنوب بحيرة شاد اكتفى برفع علم المهدية بشعاراته المعروفة (لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد أحمد المهدى خليفة رسول الله) ومن حوله رجاله يقيمون مملكة سودانية مسلمة حكمها رابح بالسنة والكتاب تماماً كما كان يفعل الزبير فى بحر الغزال وخاض هو ورجاله معارك دامية انتصروا فيها على الفرنسيين .

وفى يوم ٢١ أبريل عام ١٩٠٠ أى بعد عشرين سنة من تأسيس تلك الدولة انتصرالفرنساويون بعد أن جمعوا جموعهم وحشدوا رجالهم ضد أبطال السودان المهاجرين فخر رابح مضرجاً

بدمائه وهو يحمل الراية المقدسة فى حرب صليبية من حروب القرن العشرين كما سقط فى الميدان قائد الفرنسيين الكونت لامى الشهير .

ثم تجمع فلول جيش الأبطال تحت قيادة ابن رابح ولكن الفرنساويين وهم كثرة فى تلك المناطق بدأوا يتعقبونهم و بمساعدة الاستعماريين الإنجليز فقتلوا حامل الراية الشاب وأسروا رجاله .

أما فى السودان فلم يمضى وقت قصير على مقتل سليمان الزبير إلا واندلعت نيران الثورة المهدية فى وجههم من كل مكان وخر غردون مضرجاً بدمائه نتيجة لغروره وحماقته ووفاء للدماء البريئة التى كان سبباً فى إراقتها ثم انقضت المهدية ودخل السودان تحت ظل الحكم الثنائى فعاد الزبير باشا للسودان زائراً ثم رجع إلى مصر وعاد مرة أخرى وبقى إلى أن مات عام ١٩١٤ ميلادية ودفن بمدينة الجيلى بين قومه وعشيرته وبذلك انتهت قصة ملك مسلم وبطل مقدام من أبطال السودان الخالدين .

الحركة الثقافية فى العهد العثمانى

اشتهر الأتراك العثمانيون بحبهم للعلم والعلماء وبناء المساجد الفاخرة وتشجيع التلاميذ على قراءة القرآن . ومهما كان من سوء تصرف بعض حكامهم فى التفريط فى شئون المسلمين إلا أنه من الإنصاف أن تذكر هذه الحقيقة فى سجل حسناتهم فهم من غير شك بذلوا الكثير فى جانب نشر الوعى الإسلامى فى البلاد التى فتحوها أو دخلت تحت نفوذهم ــ فبالإضافة إلى رواق الفور فى الجامع الأزهر أفرد الأتراك من حكام مصر رواقاً خاصاً باسم السناريين كان مأوى لكثير من علماء السودان وطلاب العلم منهم فى الأزهر الشريف وكان يرجع إليه الفضل فى تخريج حملة مشعل الثقافة الإسلامية فيما تلا ذلك من عهود ومن أشهرهم الشيخ أحمد ود عيسى صاحب مسجد ود عيسى المشهور بالجزيرة والسيد أحمد الأزهرى ابن الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الرحمن المضوى والشيخ الحسين إبراهيم الزهراء كما بنى الأتراك جامعاً بالخرطوم جلس للتدريس فيه أجلة العلماء من المصريين والسودانيين كما أنشأوا مدرسة بالخرطوم عينوا لها الشيخ رفاعة بك الطهطاوى وعلى يديه تخرج كبار السودانيين فى ذلك العهد كما أنشأوا مدارس أخرى فى بربر ودنقلا والخرطوم وكسلا

والأبيض ، وقد أجرى السلاطين الأتراك الأرزاق على المشايخ وأئمة المساجد وطلبة العلم — وقد ازدهر الأدب فى هذا العهد فظهر الشعراء والأدباء وعرفت المطبعة الحجرية طريقها إلى السودان .

ومن أشهر المدارس القرآنية فى هذه الفترة مدرسة الغبش فى بربر وكانت القراءة فيها فى جامعين جامع للحلنقة وآخر للعرب وكان يؤمها طلاب العلم من جميع الجهات حتى من خارج السودان من بلاد الصومال ومن المغرب وفى عهد الخديو عباس حلمى الثانى جعلت لهذه الخلاوى بعض المخصصات من الحكومة المصرية تصرف على طلبة العلم فيها .

ومن أشهر تلاميذ الغبش فى هذه الفترة السيد حمد ود المجذوب من كبار السادة المجاذيب فى الدامر ويفخر الغبش أيضاً بأن محرر السودان الأول وبطله الفذ السيد الإمام محمد أحمد المهدى تخرج من مدارسهم على يد أستاذه الشيخ محمد الخير وقد عرف السيد المهدى أثناء مقامه فى الغبش بالتعبد والورع والزهد والانقطاع للعلم مما حدا بالشيخ عبد الماجد محمد الغبشاوى ابن أخ الشيخ محمد الخير أن يبنى من حر ماله خلوة خاصة للسيد محمد أحمد المهدى ليتعبد فيها بجوار المسجد ولا تزال آثار تلك الخلوة باقية إلى يومنا هذا ومن أشهر الرجال الذين تخرجوا من خلاوى الغبش فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ الطيب أحمد هاشم أول مفتى للسودان فى عهد الحكومة السابقة

وشقيقه الأستاذ العالم الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم مؤسس المعهد العلمى بأم درمان والأستاذ الشيخ أحمد حميده والد فضيلة الشيخ أبشر أحمد حميده قاضى قضاة السودان سابقاً والشيخ النذير خالد راجل الكلاكلة المشهور .

ومن مدارس القرآن الشهيرة أيضاً مسجد الشيخ الزين ببلدة أكد شمال حفير مشو ومسجد كلمسيد بالزاورات ومسجد ود إبراهيم بأرقو وأحمد وديدى بأمنتجو ومسجد الحاج شريف جد الإمام المهدى ثم مساجد الدواليب فى الدبة والدفارية فى قشابى وقنتى وعلى حاج سعيد بحاج شريف والشيخ ود حاج فى نورى بدار الشايقية ومساجد العراقاب بالشايقية أيضاً ومن المساجد المعروفة فى وسط السودان مسجد الشيخ الجعلى ومسجد المجاذيب بالدامر ومسجد الكتياب ومسجد العمراب أولاد حامد أبو عصا ومسجد الفادنية بقوز نعيم ومسجد الجوير ومساجد السادة الرازقية فى باتفا ومسجد السادة الطيبية أبناء الشيخ أحمد الطيب البشير فى طابت بالجزيرة ومسجد الشيخ السنى محمد الضوى بجزيرة نونى ومسجد الشيخ إدريس بن الأرباب ومسجد الشيخ عبيد محمد بدر بأم ضبان ومساجد العركيين فى طيبة ومسجد الشريف محمد الأمين بحله نوار على نهر رهو وفى الغرب مسجد الشيخ إسماعيل الولى فى الأبيض ومسجد الدواليب فى خورسى وفى شرق السودان مسجد الفقيه الأزرق المجذوب بالقضارف وقد أخذ عنه الشيخ محمد الخير الغبشاوى أستاذ الإمام المهدى .

واشتهر العهد العثمانى إلى جانب كل ذلك بنشاط صوفى ملحوظ فقد اشتهر الشيخ العبيد ود بدر فى أم ضبان بالعمل بالطريقة القادرية وكذلك اشتهر بالعمل بها الشيخ المضدى عبد الرحمن حفيد الشيخ إدريس المشهور كما اشتهر الشيخ محمد شريف نور الدايم بالعمل بالطريقة القادرية السمانية وعلى يديه أخذ الإمام المهدى تلك الطريقة والشيخ محمد شريف هو ابن السيد نور الدايم بن السيد أحمد الطيب ود البشير من أهل المدينة المنورة وإليه يعزى دخول الطريقة السمانية للسودان وقد توفى ودفن فى سفح جبل أم مرح بالجزيرة .

والمجاذيب فى بربر كانوا كذلك منارة يهتدى بها فى التصوف فى هذه الفترة وقد كانوا على الطريقة الشاذلية أما الطريقة الختمية فقد لاقت رواجاً عظيماً فى كسلا ودنقلا ودار الشايقية وأخذ رجالها يجوبون أنحاء السودان داعين مبشرين وعلى أيديهم اهتدى كثيرون ولا تزال الملايين الغفيرة من جميع أنحاء السودان تسير على هدى زعيمها العظيم سيادة مولانا الحسيب النسيب السيد على الميرغنى أطال الله من عمره وجعله كهفاً وملاذاً .

ومن الختمية تفرعت الإسماعيلية على يد مؤسسها السيد إسماعيل الولى الذى أخذ الطريقه على السيد محمد عثمان الميرغنى وأصبح فيما بعد من كبار الصالحين الذين عم نفعهم وظهرت

بركاتهم ولا تزال ذريته توالى نشاطها وتنير الطريق للمريدين وتيسر لهم سبيل العلم وطريق الرشاد — والطريقة التيجانية لمؤسسها السيد أحمد بن محمد المختار التيجانى المتوفى بفاس عام ١٨١٥ م والمنتشرة فى مراكش ووداى وبرنو وغيرها من البلاد دخلت السودان فى أواخر العهد العثمانى فى السودان ولها أتباع اشتهروا بالورع والصلاح وقوة الشكيمة فى الجهاد لنشر الإسلام بالكتاب والسيف — وكذلك دخلت الطريقة الأحمدية والرفاعية وغيرها من الطرق .

الثورة المهدية

لم ينعم الأتراك طويلاً بحكم السودان . بعد فتحه على يدى إسماعيل باشا ابن محمد على فى عام ١٨٢١ م فقد كان عهدهم قاسياً عليهم مفروشاً بالجمر والشوك فقد قامت الثورات فى كل مكان منذ أن دخلت الجيوش الغاصبة أرض الوطن فثورة الملك نمر فى شندى وحرقه لإسماعيل باشا فاتح السودان، كانت الفاتحة البليغة ثم تلتها ثورات فى دارفور من سلاطينها وفى بحر الغزال من سليمان الزبير ورجاله وفى شرق السودان لم تكن الحال مستقرة وفى كسلا تمردت الحامية وكادت الثورة تندلع وكان لا بد لتلك الثورات أن تقوم فالأتراك كانوا قساة أجلافاً لا يعرفون للناس مكانتهم ولا يحفظون لأحد كرامته

فأذلوا الملوك ورجال القبائل وزعماء العشائر وفرضوا عليهم الضرائب الباهظة وأشاعوا المحاباة والرشوة بين الناس ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل مما زاد الطين بله إنهم بدأوا يعينون حكاماً على السودان ومدراء لأقاليمه من غير المسلمين ومن الأوربيين ذوى المطامع الاستعمارية من أعداء العروبة والإسلام غير مراعين فى ذلك الشعور الدينى لأهل البلاد . وهذا بالذات هو الذى أوقد النار وأثار الحفائظ وحرك العلماء ورجال الدين وجعلهم يفتون بكفر الترك ووجوب محاربتهم ويتحينون لذلك الفرص وينتظرون القائد .

لم يكن فساد حكم الأتراك مقصوراً على السودان بل إنه كان عاماً ، فتركيارجل أوربا المريض—وهذا ما أطلقه الساسة الإنجليز على الإمبراطورية العثمانية فى ذلك الوقت — كانت تحتضر فى كل مكان فالحجاز لم يكن راضياً إذ قام فيه الإمام محمد بن عبدالوهاب يبشر برسالة إصلاحية جديدة لقيت رواجاً عظيماً بين رجال القبائل فى نجد وفى أمراء آ ل سعود على وجه الخصوص ،وقد أنفقت الدولة العثمانية جهداً كبيراً فى إخماد ثورته فى أيام محمد على باشا قبيل فتح السودان .

وانتشرت أفكار الوهابية فى شمال أفريقيا على يد السنوسى الذى قام بحركة مماثلة كان لها أثر عظيم فى تلك الجهات والشام

فى ثورة واضطراب وقد أصبحت ميداناً لقتال مرير بين الخليفة فى تركيا ومحمد على فى مصر . ومصر نفسها ثار فيها الجيش المصرى ضد الأتراك الحاكمين فى مصر بقيادة عرابى باشا إلا أن الإنجليز تدخلوا بحجة حماية الأقليات المسيحية والمصالح الأوربية، واستتباب الأمن فى قناة السويس طريق بريطانيا الموصل للهند واحتلوا مصر فى عام ١٨٨٢ م أى قبل سقوط الخرطوم على يد المهدى بثلاث سنوات فقط — وإلى جانب عرابى فى مصر قام رجال مصلحون كبار كان لهم أثر كبير جداً فى تنبيه الرأى الإسلامى ضد مكائد المستعمرين وعلى رأس أولئك المصلحين السيد جمال الدين الأفغانى الذى جاء إلى مصر بعد أن طاف بكثير من أجزاء الوطن الإسلامى ثم قام من بعده تلميذه الشيخ محمد عبده الذى كان يؤيد ثورة عرابى وعلى يديه تخرج نخبة من زعماء مصر ورجالها البارزين .

كانت كل هذه الحركات ترمى فى جوهرها إلى الدعوة للتمسك بروح الدين الصحيح والتنبه إلى أعداء العرب وكشف أساليبهم الفاسدة وطرقهم الملتوية ، والحد من أسلحتهم المسمومة التى بدأوا يخدرون بها الشعوب الشرقية المسلمة . والسودان الذى قام بدوره كاملاً فى نشر الإسلام وحمل لوائه منذ فتح دنقلا ودخول القبائل العربية فيه لم يتخلف عن الركب العربى المسلم فى إنكار حكم الأتراك ونقد أساليب حكمهم الفاسدة بل

كانت ثورته أولى الثورات وقد كشفت ضعف المستعمرين وجرأت الهند على حرب الإنجليز وقتالهم ومهدت الطريق أمام كل الحركات التحريرية التى تلت . فالثورة السودانية هى أم الثورات فى الشرق الإسلامى كله من غير منازع وكفى هذا فخراً .

الثائر العظيم

إن الصيحة المدوية التى أطلقها الفاتحون المسلمون من فوق ربا دنقلا العجوز ووديانها فى يوم ٩ يونيو ١٣١٨ ميلادية والتى أنطلق فى أثرها سيل القبائل العربية المسلمة وهى تحمل راية الخلاص ومفتاح الخير لهذا الوطن لم تعد مدوية كما كانت وذلك السيل العربى لم يعد عاتياً قوياً كما بدأ فقد خنق الترك ذلك الصوت واعترضت جيوشهم الركب العربى الزاحف وبدأ عرب السودان وهم الذين هجروا ديارهم فراراً من الاضطهاد الأعجمى يلاقون اضطهاداً تركياً أعجمياً آخر فى مهجرهم الجديد ولكن : هاهى ذى دنقلا مرة أخرى تصحو ذات صباح وقد بدأ الضوء فى جزيرة ضرار يبدد الظلام رويداً رويداً فى عام ١٨٤٣ م ويبشر بمولد صيحة داوية تزحم الأفق وتملأ المسامع لتجدد ما اندثر وتوصل ما انقطع وتثأر للعرب المسلمين من الترك الأعاجم وأعوانهم من الاستعماريين الغاصبين وتعلن حرباً صليبيه أخرى ـــ

تلك الصيحة الوليدة هى محمد أحمد بن عبد الله الحسنى أبو الحسينى أما الثائر العظيم فهو محمد أحمد المهدى.

هاجر الطفل العظيم إلى أم درمان مع والده وحفظ القرآن فى كررى والخرطوم ثم دَرس الفقه فى مسجد ود عيسى بالجزيرة وعلى يد الشيخ محمد الخير فى بربر ثم أخذ الطريقة السمانية على يد الشيخ محمد شريف ثم الشيخ القرشى فى الحصاحيصا . وهكذا فقد جمع الفتى الشاب بين القرآن والفقه والحديث وبين علوم أهل الباطن إلى جانب نسب رفيع فشب زكى الفؤاد أبى النفس عالى الهمة لين الجانب قوى الثقة بنفسه وربه وكانت أميز صفاته حبه للعمل وكيف لا وقد شب فى أحضان أسرة عاملة تبنى السفن الشراعية وتقطع الأخشاب لتكسب قوتها من عرق جبينها وإن شاطئ النيل فى بربر ليذكر ذلك الشاب الأسمر أدعج العينين أزج الحواجب كبير الرأس عريض الوجه وهو يبتسم فى رضا يكشف عن فلج فى أسنانه ولحيته السوداء المستديرة تضفى عليه هيبة ووقاراً وأنفه العربى الأقنى يميزه عن باقى رفاقه وهو يصيد السمك من النيل له ولصحبه . ثم فى منزل شيخه محمد شريف بالخرطوم يجمع الحطب لنار القرآن ثم فى الحصاحيصا كان يحمل الطوب وهو يتصبب عرقاً يشارك فى بناء ضريح لأستاذه وهنالك ألتقى بخليفته الأول وساعده الأيمن عبد الله التعايشى .



الإمام المهدى

اكتمل الفتى علماً وعقلاً وبدأ يستعد للقيام بالدور العظيم الذى كان ينتظره فى الجزيرة (أبا) على النيل الأبيض فى عام ١٨٨١ م أعلن الفتى أنه المهدى المنتظر وأن بعثاً جديداً قد بدأ فى قلب الأمة العربية وأن حرباً صليبيه أخرى قد انطلقت أولى قذائفها . . . لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد وانطلق الركب .

وسرعان ما تتابعت الأحداث فهاجر المهدى وصاحبه إلى غرب السودان . يجمعون الأنصار ويهيئون الأذهان للثورة والتقى جيش الله بعصابة الغاصبين فسقطت العواصم وانهزمت الجيوش فسلمت الأبيض عاصمة كردفان ودارفور وجبال النوبة وقتل هكس باشا من أعظم قواد الإمبراطورية البريطانية فى واقعة شيكان المشهورة وتحرك الركب نحو الخرطوم وتم حصارها ثم فتحها فى يوم ٢٦ يناير عام ١٨٨٥ م وقتل غردون باشا حاكم السودان من قبل أمير المؤمنين فى تركيا وكان أحد أبناء الإمبراطورية البريطانية العظام ودعامة من دعائمها الشاهقة فى الشرق الأوسط ثم توالت الانتصارات تباعاً حتى جلت الجيوش الأجنبية عن السودان من أقصاه إلى أقصاه وأصبحت كلمة الله هى العليا وأصبح الوطن لبنيه والدين لله خالصاً .

الثورة ــ أهدافها ووسائلها

رأى الثائر العظيم بعينيه مدى ما حاق بالبلاد من ضلال وما عم فيها من فساد فساءه حال الإسلام والمسلمين وأراد أن يصلح الأحوال ويضع الأمور فى نصابها ورأى بثاقب فكره ألا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق الدين فأعلنها ثورة دينية خالصة ــ ترمى إلى تطهير الدين من شوائب الأعاجم وبدع الجهال وإقامة الشريعة الطاهرة نقية كما كانت فى بلاد المسلمين جميعاً لا فرق فى ذلك ما بين مصرها وسودانها أو شامها وعراقها وسلك فى ذلك ثلاثة طرق :

(١) إبلاغ الدعوة إلى شعوب وحكام البلاد الإسلامية مع محاولة إقناعهم بصحة الدعوة .

(٢) طلب العون منهم على القيام فى جهاتهم بإشعال نار الثورة وفتح باب الهجرة إلى السودان للانضمام إلى جيش الخلاص.

(٣) الاستعداد لإرسال الجيوش الفاتحة للبلاد الإسلامية بغرض طرد المستعمرين منها وفتحها إن هى وقفت فى سبيل الدعوة .

وقد قطع المهدى فى هذا السبيل شوطاً طويلاً غير أن المنية لم تمهله بعد فتح الخرطوم سوى أشهر قليلة حيث التحق بالرفيق

الأعلى فى ٢٢ يونيو عام ١٨٨٥م الموافق ٩ رمضان سنة ١٣٠٢هـ . وعمره اثنان وأربعون سنة وقد تابع خليفته بعده ما بدأه فى هذا السبيل فأرسلت الرسائل إلى خليفة المسلمين فى تركيا تعرض عليه طرد الإفرنج من بلاد المسلمين بالتعاون مع جيوش المهدية وتأخذ عليه تعاونه مع الإنجليز وتشجيعه إياهم فى حرب المسلمين وهو خليفتهم الناطق بلسانهم . كما أرسلت الرسائل بنفس المعنى لخديو مصر ولما لم يجد الأمر فقد أرسلت خطابات لعامة أفراد الشعب المصرى تدعوهم إلى الثورة على حكامهم والانضمام إلى جيش الأنصار . واتصل بأهل الشام وعين لهم من يقود الثورة فى بلادهم وعين على أهل فاس فى مراكش بطلب منهم « محمد الغالى » أميراً عليهم كما عين السيد محمد السنوسى خليفة له بعد الخليفة عبد الله وكان يعقد عليه آمالاً عظيمة فى طرد الترك من مصر وشمال إفريقيا وكذلك تم الاتصال بقبائل نجد ونصب عليهم عبد الله بن مسعود أميراً وقد وصل مندوب الأمير إلى أم درمان من نجد بعد وفاة المهدى . هذا كما عين على أهل الحجاز حذيفة بن سعد وكتب إلى قبائل المدينة المنورة يدعوهم للثورة — وفى الغرب اتصل بسلطان وداى وأقنعه بدعوته وتبادل الرسائل مع سلطان سكتو ومع رابح الزبير .

هذه التعبئة الضخمة تسندها الانتصارات العظيمة تحت قيادة ثائر عظيم هى الثورة المهدية فى أبسط معانيها . . . أليست هى الجامعة الإسلامية التى يرتقبها العالم الإسلامى اليوم ؟ أليست

هى الثورة العربية بقيادة الشريف حسين شريف مكة ؟ أليست هي الجامعة العربية اليوم ؟ إنها لا شك كل ذلك وفوق كل ذلك لأنها كانت ثورة وطنية خالصة مؤمنة وفى قيادة مؤمن عظيم يبايعه أصحابه (أما بعد فقد بايعنا الله ورسوله و بايعناك على توحيد الله وألا نشرك به أحداً ولا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان ولا نعصيك فى معروف بايعناك على زهد الدنيا وتركها والرضى بما عند الله والدار الآخرة وعلى ألا نفر من الجهاد) .

الحكم الثنائى

فترة الاحتلال الإنجليزى المصرى

دخلت جيوش الاحتلال مدينة أم درمان فى ٢ سبتمبر عام عام ١٨٩٨م بعد واقعة كررى المشهورة ورفع بعد يومين من الفتح على سراى غوردون بالخرطوم العلمان المصرى والإنجليزى وأطلق على السودان منذ ذلك اليوم اسم السودان المصرى الإنجليزى وكان أول عمل قام به المستعمر البريطانى أن أقام صلاة على روح غوردون .

هذه الفترة التى بدأت عام ١٨٩٨ م وانتهت فى اليوم الأول من يناير عام ١٩٥٦ م يوم أن ارتفع العلم الجمهورى للدولة السودانية الجديدة كانت فترة ركود فى الميدان الدينى — فترة

انتصر فيها الإنجليز الحاقدون وبدأوا يثأرون لكرامتهم المهدرة فى شخص قديسهم القتيل غوردون باشا ويكملون رسالته الاستعمارية الصليبية فى إيقاف تيار الإسلام فى صوب الجنوب والحد من زحف السيل العربى المتدفق بقفل الجنوب وفصله عن الشمال وبذروا بذور الشقاق والتفرقة بين العرب وإخوانهم من أهل الجنوب وجعلوا بلادهم منطقة للتبشير المسيحى أو قل للنفوذ الأوربى دون الإسلامى ونشروا فيه اللغة الإنجليزية دون العربية وأرادوا من كل ذلك أن يردوا عقرب الساعات إلى الوراء ويوقفوا عجلة التاريخ ولكن بالرغم من كل ذلك كان هنالك قبس من نور وشعلة من إيمان تتجلى من شخص وقور من خريجى الأزهر الشريف ومن علماء الثورة المهدية الجريحة — ذلك هو الأمام الكبير الشيخ محمد البدوى .

الشيخ محمد البدوى
شيخ العلماء الأول

هو بن قبيلة البديرية المعروفة بالسودان، والتي يتصل نسبها بالعباس عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو أول من تولى مشيخة العلماء فى عهد الاحتلال الأجنبي — تلك الفترة التي عرفت فى التاريخ بعهد الحكم الثنائى . ولد رضى الله عنه بمدينة الأبيض ونشأ بهاو بعد أن حفظ القرآن صار يتردد على علماء البلدة ويقرأ عليهم العلوم المتعارفة فى ذلك الوقت غير أنها لم تشبع رغبته المتطلعة للكثير فتعلقت همته بالمزيد من المعرفة، ولما كان الأزهر الشريف كعبة القصاد لطلاب العلم من جميع أنحاء البلاد الإسلامية عقد العزم على الهجرة إلى مصر والالتحاق بالأزهر فسافر على بركة الله وانخرط فى سلك الطلاب وابتدأ يجد ويجتهد مواصلاً الليل بالنهار وكان من حسن حظه أن أدرك بقية العلماء العاملين الذين اتصفوا بالورع الكامل والغيرة فى ذات الله والسير فى طريق السلف الصالح كالشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى فلازمهما ملازمة الظل وقلدهما فى الأقوال والأفعال فجاء نسخة كاملة منهما فكان إماماً فى مذهب الإمام مالك، وسنداً فى التفسير وحجة فى الحديث .

مكث الشيخ بالأزهر نحو العشر سنوات كان فيها مثال الذكاء والنشاط ليس له هم سوى الأخذ من كل فن بطرف ؛ فلما بلغ الغاية القصوى وحين ظهرت ثمرة عمله شهد له العلماء الأعلام ومنحوه الإجازات العامة والخاصة فعاوده الحنين إلى بلده ومسقط رأسه فرجع إلى السودان بطريق الأربعين فوصل مدينة الفاشر فقابله أهلها بالتجلة والاحترام ومكث فيها ما شاء الله أن يمكث فى بث العلم ونشر الفضيلة ، ثم رحل إلى بلده أم شنقه نزولاً على رغبة أهلها الملحة فى أن يفتح لهم مدرسة لتدريس العلم ، فتزاحم الطلاب وأخذوا عنه الكثير حتى ذاع خبر قيام الإمام المهدى بدعوته المشهورة فهاجر إليه واجتمع به فى الأبيض وتبايعا على العمل بالكتاب والسنة وإقامة الشعائر الإسلامية والجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله حتى ترجع للدين سيرته الأولى ، فيعدل الحاكم ويطمئن المحكوم فسار على هذا العهد وأدرك مع الإمام المواقع الكبرى شيكان وجبل الدائر إلى أن وصل مدينة الخرطوم وشهد فتحها وانتقل بعد ذلك الإمام المهدى إلى جوار ربه فعينه الخليفة عبد الله قاضياً للشريعة ووجهه إلى مدينة بربر فعكف على النظر فى القضايا وتطبيق الأحكام الشرعية حتى عرف بالعدل والإنصاف لدى العامة والخاصة ومن أشهر قضاياه أن أحد الأعراب من أهالى بربر جاء يشكو آخر ويدعى أنه اقتلع عينه لغير ما سبب ، فاستدعى الشيخ الشهود وبعد الثبوت الشرعى لم يكن من الشيخ إلا أنه قام بنفسه واقتلع عين الأعرابى

عملاً بنص الكتاب « العين بالعين » .

ثم عاد لأم درمان بناء على طلب الخليفة وبقى بها حتى كانت موقعة أم درمان الكبرى بجبل كررى وبعدها دخل السودان تحت الحكم الثنائى .

رأت حكومة السودان آنذاك أن تسكت سكان البلاد بإنشاء هيئة للعلماء تنظر فى مشاكلهم الدينية ، فكونوا لجنة من العلماء فاختارت تلك اللجنة أن يكون رئيسها الشيخ محمد البدوى الذى تقبل هذا الاختيار ، وبعد التشاور مع العلماء أجمعوا على أن يجلسوا للتعليم فى منازلهم وساروا على هذا النظام وافتتح هو التدريس فى منزله وكان فيه متسع للجميع فتوافد إليه الطلاب من كل صوب وحدب وكان فى مقدمتهم الإمام الراحل سيادة الحسيب النسيب الإمام السيد عبد الرحمن المهدى ، وكان الشيخ يكرمه ويجلسه عن يمينه وهذه مزية لا يتمتع بها باقى الطلاب. والطلاب فى ذلك العهد هم فى الغالب الأعم الخلاصة من بيوت الدين التى لها أثر صالح بالسودان ؛ فمنهم السيد ميرغنى السيد المكى ، والشيخ غريب الله أبو صالح الطيبى والشيخ إسحاق الشيخ محمد النيل العركي والسيد كرار السيد المكى والسيد محمد السيد الباقر ، والشيخ أحمد محمد الباوى والشيخ الصلحى القاضى عثمان والشيخ موسى الشيخ محمد الجزولى والشيخ عثمان بشير العمرابى ، والشيخ محمد أحمد أبو سبيب ، والشيخ ود الحسن والشيخ

إبراهيم الإمام، والشيخ علي بخيت، والشيخ الأمين التراني، والشيخ الطاهر الشبلي والشيخ علي أدهم، والشيخ حامد عبد المحمود، والشيخ عبد الكريم النويري، والفكي عبد اللطيف أبو قير الحوجلاني والشيخ مكي حسن حسين، والشيخ محمد بكار والخليفة الهادي خليفة تونى، والخليفة سليمان محمد وغير هؤلاء كثير.

انتظمت الدروس الرسمية بهؤلاء الطلاب المتقدم ذكرهم وللشيخ دروس خاصة أيام المواسم من السنة العربية ففي عاشر المحرم يقرأ قصة عاشوراء في فضل صيام اليوم ويأمر كل مفطر سمع بتلك الفضائل مؤخراً أن يصوم باقي اليوم ليدخل في الفضل العظيم وفي أول ربيع الأول يشرع في تفسير المولد البرزنجي ويجلب كل ما كتب الشراح عليه فيستغرق الساعات الطوال وفي العشر الأواخر من رجب يقرأ قصة المعراج للشيخ نجم الدين وفي منتصف شعبان يقرأ فضائل ليلة النصف منه وفي شهر رمضان يقرأ تفسير القرآن فيحضره أكابر العلماء وفي أوقات أخرى يشرح للطلاب البردة والهمزية وقصيدة بانت سعاد ويتوسع في الشرح ويتعمق في السير والتاريخ وهكذا تكون المواسم العربية عامرة بالعلم والأعياد ويتنافس المتنافسون من الطلاب في جميع الدروس لا تفوتهم شاردة ولا واردة وهؤلاء الطلاب بالأمس هم الذين كانوا النواة الأولى وعلى أكتافهم قام المعهد العلمي في عهد الشيخ أبي القاسم أحمد هاشم.

توفى رحمه الله بأم درمان فى عام ١٩١١ م ودفن فى حشد مهيب من علماء البلاد ورجالات السياسة وانفكر بين البكاء والنحيب .

المعهد العلمى بأم درمان

عندما جاء الحكم الثنائى سنة ١٨٩٨ م عين هيئة من كبار العلماء الذين كانوا وقتئذ يدرسون علوم الشريعة الإسلامية متبرعين وأسندت رئاستها للعلامة الورع الشيخ محمد البدوى عليه رحمة الله . وكان هؤلاء العلماء هم : الشيخ النذير خالد — الشيخ عيسى دوليب — الشيخ محمد الأمين الضرير — الشيخ محمد المشهور بولد الجريف — الشيخ محمد عبد الماجد — الشيخ الباقر — السيد إسماعيل — الشيخ أحمد محمد نور — الشيخ حاج أحمد المجذوب — الشيخ الجبلى التلب — وكانت لجنة العلماء هذه تستشار فى الأمور التى تكون ذات صلة مباشرة بالعقائد الدينية وتقاليد أهل البلاد وكانت تدعى لحفلة التشريفة السنوية ولغيرها من المناسبات الرسمية .

وحينما توفى الشيخ محمد البدوى عليه رحمة الله سنة ١٩١١ م رشحت الحكومة الشيخ أبا القاسم هاشم خلفاً له فى رئاسة العلماء وكان إذ ذاك قاضياً شرعياً لمديرية النيل الأزرق . بواد مدنى نقبل

المنصب تحت اشتراطات على الحكومة تختص بتأسيس المعهد فتم تعيينه وتسلم عمله فى يناير ١٩١٢ م وقد وجد العلماء كحالهم السابقة متفرقين فى منازلهم . وكان أول عمل قصد إليه هو جمع العلماء فى مكان واحد ليكون منهم نواة أزهر للسودان فجمعهم وتحدث إليهم عن فكرته هذه فوافقوه واستقر رأيهم على أن تكون الدراسة فى جامع أم درمان الكبير وكان بناؤه حينذاك « رواكيب من القش » فاجتمع فيه العلماء وطلابهم وأخذ الشيخ أبو القاسم على نفسه تنظيم التدريس وأحضر لائحة الأزهر ووضع المنهج الدراسى على غرارها وتقررت دراسة جميع العلوم التى تدرس بالأزهر الشريف كما جعلت المراحل الدراسية وشهاداتها كما هى فى الأزهر وسلك التدريس من ذلك الوقت طريقاً مركزاً سار عليه إلى يومنا هذا وسميت هذه المؤسسة من ذلك التاريخ (المعهد العلمى بأم درمان) ثم أخذ الشيخ أبو القاسم يواصل مساعيه لإصلاح المعهد وتثبيته فوجه نداء للمواطنين والنزلاء يطالب منهم التبرع بوقف كتب لمكتبة المعهد العلمى فوصل ذلك النداء الأمير محمد على بمصر فألف لجنة لهذا الغرض فجمعت تبرعات ضمت إلى تبرعه واشتريت بها كتب بلغت ٨٢١ مجلداً أرسلت إلى المشيخة العلمية بأم درمان كما تبرع المواطنون ونزلاء السودان بـ ٨٥٥ مجلداً فبلغت مكتبة المعهد ١٦٧٦ مجلداً ثم طالب الشيخ أبو القاسم الحكومة بأن تبنى داراً للمشيخة العلمية والمكتبة فبنيت داخل سور الجامع من جهة الجنوب ، كما جمع أعيان أم درمان

وتكونت منهم لجنة لبناء جامع أم درمان وصادق لها بجمع التبرعات ووضع أساس الجامع سنة ١٩١٧ وتم؛ وانتقلت إليه الدراسة سنة ١٩٢٣ م وانتظمت إدارة المعهد ووضعت لائحة وعين للإدارة كاتب وللمكتبة أمين وللمعهد وكيل هو المغفور له الشيخ أحمد أبو القاسم . وكان الطلبة فى أول عهد الشيخ أبوالقاسم نيفاً وخمسين طالباً والمدرسون عشرة وكانت تعطى للطالب جراية هى عبارة عن « رغيف » ثم استبدلت بثلاثين قرشاً فى الشهر وكان مرتب المدرس ثلاثة جنيهات لا تزيد طيلة حياته إلا زيادة طفيفة .

وقد تخرجت فى عهد الشيخ أبى القاسم أول دفعة من حملة الشهادة العالية وكان ذلك عام ١٩٢٤ م وكانت مكونة من ثلاثة علماء هم الشيخ عبد الله الترابى القاضى الشرعى بالمعاش والشيخ إبراهيم أبو النور من كبار مدرسى المعهد اليوم والمرحوم الشيخ صالح حاج على الذى كان مدرساً بالمعهد .

أخذ المعهد فى تخريج العلماء فوجاً إثر فوج وازداد عدد طلابه مما كاد يتعذر معه سير الدراسة لقلة المدرسين فاستعان الشيخ أبو القاسم بكبار الطلبة فى تسيير الدراسة من غير أن يؤثر ذلك على دراستهم فكانوا يدرسون للطلبة البادئين فى أول النهار ويعودون لأساتذتهم عند الظهر وكان الطلبة هم المشايخ — الشيخ محمد الصلحى عثمان — الشيخ الأمين الترابى — الشيخ محمد المصطفى .

والمغمور لهم الشيخ إبراهيم الإمام – الشيخ إبراهيم أبو الزين – الشيخ محيي الدين عيسى . الشيخ الزين عبد الله تناد – الشيخ حامد عبد المحمود – الشيخ موسى الجزولي – الشيخ السيد محمد الباقر .

وعند ما أكمل هؤلاء الطلبة مقرراتهم النهائية طلب الشيخ أبو القاسم تعيينهم مساعدى مدرسين بالمعهد لحاجته إليهم فوافقت الحكومة على ذلك بشروط هى إمعان فى التنفير من المعهد . أولاً : يعتبرون أنفسهم متبرعين وستمنح الحكومة كلا منهم ثلاث جرايات أى ما يعادل (٩٠ قرشاً) فى الشهر على أن يظلوا كذلك إلى أن يعفى مدرس أو يتوفى فيعين أحدهم مكانه وألا يزيد عددهم عن ستة وكان هذا شأن كثير من العلماء الذين تخرجوا فى المعهد وقبلوا العمل فيه .

وكان الشيخ أبو القاسم أجزل الله ثوابه لا يفتأ يواصل السعى الحثيث لدى المسئولين بطلب إصلاح المعهد وتحسين مستوى مدرسيه وإفساح المجال لخريجيه فى دور القضاء الشرعى والتدريس فلم تكل له عزيمة أو يهن فى هذا الصدد حتى انتهى عهده المشرق الزاهر فى عام ١٩٣٢ وكان المعهد قد خرج ٣٤ عالماً من حملة الشهادة العالمية و ٩٤ من حملة الشهادة الأهلية و ١٣٤ من حملة الشهادة الابتدائية وبلغ عدد مدرسيه ٢٥ مدرساً وطلابه ٢٤٣ طالباً ومكتبته تضم أكثر من ألف مجلد وأسس فيه الطلاب جمعية أدبية سماها جمعية الثقافة لتعمل

للنشاط الأدبي والبحث العلمي وتقيم الاحتفالات الدينية كما كان يقيم في نهاية كل عام دراسي احتفالاً يعرض فيه النتائج ويقدم الجوائز للفائزين وقد بذل خلال العشرين عاماً التي قضاها شيخاً لعلماء المعهد جهوداً جبارة ينحني التاريخ لها إجلالاً وإكباراً .

وفي سنة ١٩٣٦ بدأ طلبة المعهد يتحركون فقد تقدموا بمذكرة يطالبون فيها بإصلاح المناهج الدراسية وإحضار بعثات علمية من الأزهر وإرسال طلبة للالتحاق بالأزهر وبناء أروقة للطلبة النازحين من الأقاليم فلم تجد مذكرتهم قبولا لدى المسئولين فأضربوا ثم عادوا لدروسهم بعد محاولات الوسطاء ثم تطورت الأحوال فيما بين الأعوام ١٩٣٦ — ١٩٤٦ فازداد الشعور الوطني ونشأ مؤتمر الخريجين العام ثم الأحزاب السياسية فتأثرت قضية المعهد بهذا الجو وتقدم الطلبة بمذكرة للحكومة أهم ما فيها معادلة الشهادات المعهدية بمثيلاتها من شهادات المدارس أسوة بما في مصر وإنشاء كليات في المعهد وبناء داخلية للطلبة الأغراب فلم تلتفت الحكومة إلى مذكرتهم فقرروا الإضراب الجماعي عن الدراسة وبذلت محاولات كثيرة من الأعيان والهيئات وكان للشيخ حسن مأمون قاضي القضاة الأسبق سهم كبير فيها فعاد الطلبة لدراستهم بعد أن تعهد الشيخ حسن مأمون لهم بأن يدافع عن مطالبهم بكل ما أوتي من قوة . وفي عام ١٩٤٨ م تأسس

المجلس الأعلى الأول للمعهد على إثر توصية من المجلس الاستشارى لشمال السودان الذى بحث مذكرة الطلبة وقد أشرف على المعهد حتى سنة ١٩٥١ . وقد حقق من مطالب المعهد مجانية الكتب الدراسية ومنح الطلبة استمارات السفر وبعثة الأزهر العلمية التى قامت بمجهودات قيمة فى المضمار العلمى كما أرسل بعثات لكليات الأزهر ودار العلوم وأوصى بإنشاء كليتى شريعة ولغة عربية فى المعهد لعام ١٩٥٧ وكان ذلك المجلس برئاسة المغفور له الشيخ أحمد الطاهر قاضى القضاة السودانى السابق

ثم خلفه المجلس الأعلى الثانى فى نوفمبر ١٩٥١ برئاسة صاحب الفضيلة الشيخ حسن مدثر قاضى القضاة الحالى ومن أعماله إقامة البناء الضخم الذى تقوم فيه الدراسة الآن ومنح الأساتذة درجات كموظفى الحكومة كما قرر إنشاء كليتى الشريعة واللغة العربية وإنشاء قسم لتخصص التربية والتدريس لحملة الشهادة العالمية من طلبة القسم العالى واستمر مشرفاً على المعهد حتى سنة ١٩٥٥ حيث أنشئت مصلحة الشئون الدينية التى تشرف على المعاهد الدينية اليوم وهى تبذل جهوداً كبيرة لإصلاح المعاهد من الناحيتين العلمية والمادية .

وكانت الفترة التى أعقبت عام ١٩٤٦ فترة نشاط سياسى وبعث وطنى وقد احتضنت الأمة المصرية قضية تحرير السودان فهاجر على إثر ذلك كثير من طلبة المعهد العلمى إلى مصر

ففتحت أبواب جامعاتها ودور علمها وأنفقت عليهم الكثير حتى تخرجوا فى معاهدها .

أما أساتذة المعهد فقد كانوا يوالون إرسال المذكرات للمسئولين فى الحكومة مطالبين بإنصاف المعهد ورفع الحيف عنه، وكانت مذكراتهم تفيض بالحجج القوية والبراهين الواضحة هذا، وقد أسس خريجو المعهد رابطة لهم فى عام ١٩٣٢ م ثم تحولت فى عام ١٩٤٥ م إلى دار خريجى المعهد العلمى بأم درمان وقد بذل أعضاؤها جهوداً كثيرة لنصرة قضية معهدهم العتيد ومن أشهر قضاياهم وأكثرها أزماناً قضية مساراة خريجى المعهد بأقرانهم من خريجى المدارس فى الدرجات وإفساح المجال لهم فى ناحية اختصاصهم .

المشيخة العلمية :

تولى مشيخة علماء السودان بالمعهد منذ تأسيسه حتى اليوم سبعة مشايخ هم المغفور له الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم . مؤسس المعهد من سنة ١٩١٢ م إلى سنة ١٩٣٢ .

المغفور له الشيخ أحمد محمد أبو دقن من سنة ١٩٣٢ م إلى سنة ١٩٣٨ م .

الشيخ أحمد الهاشم دفع الله شيخاً بالنيابة من سنة ١٩٣٨ إلى سنة ١٩٤٣ .

الشيخ أبو شامة عبد المحمود من سنة ١٩٤٣ إلى سنة ١٩٥١م

المغفور له الشيخ هاشم أبو القاسم من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٥ م .

الشيخ الأمين محمد الأمين الضرير شيخاً بالنيابة خلال عام ١٩٥٥ م .

الشيخ محمد المبارك عبد الله الشيخ الحالى للمعهد من سنة ١٩٥٦ ولا زال يتولى مشيخة المعهد. ويقودها بجدارة واقتدار وقد تخرج الشيخ محمد المبارك فى الأزهر الشريف وحصل على درجة الأستاذية من قسم تخصص المادة بالأزهر شعبة التوحيد والفلسفة وقد شغل فى الأزهر نفسه منصب مفتش العلوم الدينية والعربية وهو يعمل الآن فى منصبه الحالى منتدباً من قبل الأزهر الشريف .

خاتمة

هذه هى قصة دخول الإسلام فى السودان سقناها إليك فى اختصار منذ فتح مصر فى خلافة الفاروق عام ٦٤١ م إلى عام ١٩٥٦ برفع علم الجمهورية الحبيب وإعادة أمور البلاد إلى أهلها من السودانيين .

هذه الحقبة الطويلة التى تمتد عبر التاريخ منذ فجر الدعوة المحمدية إلى وقتنا الحاضر تحمل فى ثناياها الكثير من العبر والجليل من الأثر وإنى إذ أقدم هذه العجالة أرجو أن يتدبرها أبناء هذا الوطن الحبيب ليزدادوا ثقة بأنفسهم وفخراً بوطنهم وإعزازاً لإسلامهم فإنه لا حاضر لمن لا ماضى له ولا مستقبل لمن ليس له حاضر .

إننا نعيش اليوم فى مفترق الطرق بين المادية والروحانية بين وحى السماء وقانون الأرض بين دوافع الخير وهمزات الشياطين ونحن همل من غير راع ونخشى أن تتخطفنا السباع وتتداعى علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها لا عن قلة ولكننا غثاء كغثاء السيل . .

أخى . . .

إنك تحمل تراث أجيال ودماء أبطال تراث أجيال من

المجد والسؤدد والكفاح والإيمان ودماء أبطال سجاوا مآثرهم بدماء الشهداء الطاهرة فى ميادين الجهاد المقدس والذود عن العقيدة الطاهرة .

أخى . . .

اذكر أمجاد أسلافك الخالدين أمثال عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد والقمى وابن الجهم والناصر بن قلاوون — اذكر ربيعة وجهينة ومضر وقريش اذكر عمارة وجماع وسليمان سالون وزبير والمهدى ورابح ونمر ومهيرة . . . اذكر شهداء دنقلا وكورتى وسوبا وشيكان وكررى .

تاريخك ملىء بالأمجاد فارفع رأسك عالياً وقل فى زهو وكبرياء :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

المؤلف

محجوب زيادة حمور

الخرطوم فى ١٩٦٠/٣/٢٠

المراجع العربية

تاريخ السودان	نعوم شقير
السودان بين يدى غردون وكتشنر	إبراهيم فوزى
السودان فى العصور القديمة	تأليف دكتور حسن سليمان وجلال الجاويش
تاريخ الثقافة الإسلامية فى السودان	دكتور عبد المجيد عابدين
طبقات ود ضيف الله	العلامة محمد ضيف الله
تطور نظام القضاء فى السودان	
مجلة العروة الوثقى	
العالم العربى	
الشايقية	ترجمة دكتور عبد المجيد عابدين
بلاد النوبة فى العصور الوسطى	تأليف ب. ل. شنى ترجمة نجم الدين محمد شريف
نبذة عن تاريخ الغدر	بقلم على عبدالله أبو سن — مدير دارفور
فى شان الله	تأليف محمد أحمد الجابرى

السودان فى قرن	دكتور مكى شبيكة
مكانة السودان فى العالم العربى	الدكتور إبراهيم أحمد العدوى
السودان الشمالى سكانه وقبائله	تأليف محمد عوض محمد
معالم تاريخ سودان وادى النيل	« الشاطر بصيلى

المراجع الإفرنجية

River War	*By*	Churchill
Fire & Sword	,,	Slatin
A short History of the Sudan	,,	Margaret Shinnie
Mediaevial Nubia	,,	P.L. Shinnie
The Anglo-Egyptian Sudan	,,	sir Mac Michael

الفهرست

السودان الشقيق

تربطنا بالسودان صلات وطيدة متعددة من قديم الزمان فمنها الطبيعية فأراضى الإقليم المصرى وأراضى السودان الشقيق تقع على ضفاف النيل الخالد وترتوى بمياهه العذبة التى تبعث فى جنباتها الخصب والحياة ؛ ومنها الاجتماعية كروابط اللغة العربية و روابط الزواج ؛ ومنها الدينية فالأغلبية الكبرى من أهل البلدين تدين بالإسلام ؛ ومنها الصلات الثقافية وهى التى تعمل دار المعارف على تنميتها موفرة لقراء العربية الكتب التى تعرّف كل قطر بشقيقه مؤمنة بأن المعرفة سبيل الصداقة والمحبة والإخاء .

ومن تلك الكتب :

	صفحة	الثمن
● مصر والسودان		
للدكتور محمد فؤاد شكرى	٦٣٦	١٥٠ قرشاً
● ماذا فى السودان		
للأستاذ جلال الدين الحمامصى	٢٠٨	٢٥ قرشاً
● من وحى الجنوب		
للأستاذ أحمد حسين	٢٣٢	٣٥ قرشاً للطبعة العادية
		٥٠ « للطبعة الممتازة
● تحرير وادى النيل (اقرأ)		
للأستاذ محمود كامل المحامى	١٢٤	٥ قروش

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

أبريل ١٩٦٠ الثمن ٥٠ مليما